مستوحـــاة من أحـــداث تاريخيـــة حقيقيـــة

كوكوريا

رواية KOKORIA

محمد رأفت

سادر للكتب
للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى قلمي، الذي لم يخذلني أبدًا

مقدمة

أهلًا، كيف حالك؟!

أعلم أنك لا تفتقدني، لكنني أفتقدك، أو دعني أقول: أفتقد ما لا يمكنني المرور به بدونك، أعي تمامًا أنَّ هذا الوجوم الذي تبديه ناتج عن مئات من الأسئلة التي تتصارع داخل عقلك، لكنك على دراية بالقواعد.

حسنًا لن أطيل عليك – بالفعل - كما تظن تمامًا، لسنا داخل الأرض، لكن أيضًا لسنا خارجها، هذه الغرفة بمثابة عالم سيار، أو نقطة التقاء العوالم، لا تنظر إلى هكذا، صحيح أن البساطة التي تراها تحول بين عقلك وبين ما أقول، غرفة صغيرة، كرسي متحرك، حجر نرد، ونافذة زجاجية كبيرة بأحد الجدران، كيف لهذا العبث أن يشكل نقطة التقاء العوالم؟!

لكن، تذكَّر دائمًا أنك لا تعرف سوى القليل وما خفي كان أعظم.

أرى أنَّ ضجرك قد وصل قمته؛ لذا في هذه المرة سأحاول أن أكون استثنائيًّا وسأخبرك كيفية ذلك، ولكن الآن أنصت جيدًا، ستلتقط النرد وتبقيه بيدك لعدة ثوان، بعد ذلك ستلقيه بكل قوة في اتجاه النافذة، بعد اصطدام الحجر بالنافذة، ستنتظر.

أووه رمية جيدة، الآن انظر إلى النافذة بتركيز، ولا تفزع.

تتحول النافذة إلى شاشة عرض شديدة الدقة، تظهر صورة لعَلَم نصفه أسود ونصفه أحمر، على النصف الأسود خمسة نجوم بيضاء، وعلى النصف الأحمر طائر أصفر غير مستساغ.

بعد دقيقة، يختفي العَلَم وتظهر صورة أفقية، كأنها من طائرة، لمساحة شاسعة في النصف الشرقي من جزيرة غينيا الجديدة بجنوب غرب المحيط الهندي، نعم هذه قارة أوقيانيا، والعَلَم الذي ظهر سلفًا كان لبابوا، غينيا الجديدة.

فإلى هناك سننطلق، وهذا هو الاستثناء، هذه المرة لن تكتفي بدورك كمشاهد للأحداث، بل ستكون جزءًا منها، ستكون أحد شخصيات القصة التي اعتدت مشاهدتها والتفاعل معها عبر التلفاز، أو من خلال صفحات كتاب، لا تقلق، لن أتركك تضيع، وسأكون إلى جوارك دائمًا كالهواء الذي يتسلل إلى رئتيك، وستعرض قصتنا على هذه الشاشة المتواضعة؛ ليراها عالم الأرض أجمع.

في غضون دقائق ستتحول هذه النافذة -التي تحولت سلفًا إلى شاشة- إلى نافذة من نوع آخر.

نافذة بين وجهتنا بابوا وهذه الغرفة التي تدعى «كوكوريا»، ستشتد الرياح وتمتلئ «كوكوريا» بالأجواء

والألوان الباردة، هذه علامة التحول، حينئذ سأعدو في اتجاه النافذة، وما أن أصل إليها، لن تراني، وكل ما عليك هو تكرار ما فعلته بالضبط، وفي وقت سريع، وإلا ستصبح رمادًا تذروه هذه الرياح.

تنويه هام

في السطور القادمة لن تجد ما اعتدت عليه، سيُطلب منك ما هو أكثر من تقليب الصفحات بين يديك وعينيك، الأحداث الكبرى والمعلومات التاريخية والشخصيات الرئيسية، كلها حقيقية تمامًا، أنا وأنت ومن معنا من الشخصيات والأحداث الثانوية، خيالية، بمثابة إطار لإيصال الصورة بالشكل الأوضح، لذا ستضطر إلى استعمال عقلك للفرز، وقد تضطر – أحيانًا - للتقصي.

الفصل الأول

الكورواي، آخر فصيلة من نوعها بالعالم

لمكان: بابوا، غينيا الجديدة.

الزمان: فبراير - مارس 2020.

أنت: تسو وين.

***

29 فبراير 2020.

- عفوًا، هل يمكنك إخباري كم تبقى على الوصول؟

= بالطبع، حوالي ساعة.

- شكرًا جزيلًا.

= لا عليك، إذا سمحت لي هل تقبل استفساري عن سبب انزعاجك هكذا؟ منذ أن أقلعت الطائرة وأنت على هذه الحال.

- حسنًا، كنت أشعر بالفعل أنني أثير استغرابك، أُدعى تسو وين، أعمل كرئيسٍ لقطاع الأمن الخاص بأحد أكبر شركات التأمين بالصين، تم إخطاري مساء الأمس بضرورة التوجه إلى إندونيسيا، ومن هناك إلى وجهتنا الحالية، غينيا

الجديدة.

= تشرفت بك، لكن إلى الآن لا أعي سبب توترك! أووه لقد فهمت، أرجوك لا تشعر بالإحراج وأخبرني بذلك، أنا في سن والدك، أنت مصاب بفوبيا الطيران، أليس كذلك؟

- بل في سن جدي، نعم، في الواقع ظروف عملي تجبرني على القيام برحلات جوية لا حصر لها سنويًّا، لكن سبب استدعائي إلى بابوا قد ينتهي بفصلي عن العمل..

= أنا آسف لسماعي ذلك يا بني، لكن هل يمكنك إخباري بالمشكلة؟ خبراتي العمرية قد تؤهلني لإسداء نصيحة مجدية.

هكذا قال العجوز وهو يبتسم، لكن ذلك لم يؤت أُكله مع تسو الذي ظل عابسًا ولم يرد، بل أشاح بنظره بعيدًا باتجاه نافذة الطائرة..

احترم العجوز رغبة تسو، واكتفى بالربت على كتفه واستكمل مشروبه، لكن الشاب الصيني عاد ليكمل حديثه كأنه لم يجد في الصمت بغيته، فقال وهو مازال ينظر إلى النافذة:

- منذ أيام قليلة تعاقدنا مع إحدى شركات التنقيب بالصين لتأمين وفد خاص بها متجه إلى بابوا للإشراف على بعض

الأعمال بالمناجم، وبالفعل أرسلنا مندوبينا للتأمين، وسارت الأمور بسلاسة حتى ليلة أمس، حيث قد تم إخطاري بضرورة هذه الرحلة كما أخبرتك، وكعادة الفرع الرئيس فلم يتم إخباري بأية معلومات سوى وجود ما يعرقل أعمال التأمين هناك.

العجوز: أتفهم خوفك، لكن لِمَ كل هذا القلق؟ قد تكون مشكلة يسيرة! وأيضًا لماذا لم تتواصل مع موظفيك هناك؟ ولِمَ لَمْ يتم إخبارك من الفرع الرئيس؟ عفوًا ما معنى الفرع الرئيس أصلًا؟

تسو: أسئلتك الكثيرة تنم عن ذهن نشط لا يتناسب مع عمرك.

ابتسم العجوز شاكرًا هذا الإطراء فيما أكمل تسو: بالنسبة للفرع الرئيس فهو ما يُسمَّى مجلس الإدارة بالشركة، ولم يتم إخباري بالتفاصيل؛ لأن بروتوكول العمل بشركتنا يمنع ذلك، حيث إنه إذا استهانت في نظري أسباب الرحلة فقد يدفعني ذلك إلى التغاضي عنها، والاكتفاء بحل المعضلة دون إجراء السفر، وهو نفس السبب الذي يمنع طاقم الموظفين هناك من التواصل مع رؤساء الأقسام الفرعية، ويجرى الاتصال مع الفرع الرئيس فقط.

العجوز: وماذا عن سبب قلقك؟

تسو وهو يقلب نظره في سقف الطائرة: ألا تجد أن إسناد المهمة لرئيس قطاع التأمين الخاص بنفسه سبب كاف للقلق؟ لكل رئيس قطاع ثلاثة نواب يمكنهم الزود عنه في العراقيل اليسيرة، أما في الطوام الكبرى فيجدر برئيس القطاع أن يتدخل بنفسه.

العجوز: حسنًا يا بني، سأخبرك بما ينقصك.

التفت تسو إلى العجوز وهو لا يفهم ما ترمي إليه كلماته، فاستطرد العجوز قائلًا: جميع أفراد بعثة شركة التنقيب بخير، سوى فرد واحد، رئيس البعثة.

اتسعت عينا تسو وارتسمت على وجهه كل علامات الدهشة وصاح: وو جينغ؟؟

التفت ركاب وطاقم الطائرة لصياح تسو المفاجئ، فاعتذر العجوز نيابة عنه، وأمسك بيد تسو وهو يهمس: نعم، وو جينغ، اهدأ، وكما قلت لك: سأخبرك بما ينقصك.

ظل تسو يحدق في وجه العجوز ورأسه يوشك على الانفجار، عدل العجوز طاقِيَته وتابع قائلًا: أُدعى أجوس أكبر، عجوز إندونيسي قاربت على التسعين من عمري، قضيت عمري بين إندونيسيا والفلبين، لكن أغلب حياتي أفنيتها متنقلًا داخل غينيا الجديدة، تم التواصل معي بالأمس من

قبل شركتك، لم يستغرق الحديث سوى ربع ساعة، وافقت خلالها على عرض الشركة للاستعانة بخدماتي.

تسو وهو يجاهد للحفاظ على تركيزه: وما خدماتك؟

أجوس: تم توظيفي كدليل لمرافقتك وإرشادك أنت وموظفيك داخل غابات بابوا.

تسو: ولماذا أحتاج لدليل؟ ولماذا تخبرك الشركة بتفاصيل اختفاء وو؟

أجوس: ببساطة أنا لست فردًا من أفراد الشركة، كما أنني أحد الأدلة النوادر الملمين بجميع تفاصيل غابات بابوا، أضف إلى ذلك أنني من ضمن أندر هؤلاء الذين سيوافقون على الذهاب إلى هذا المكان، وفي ظروف مثل هذه؛ لذا فأنتم بحاجة إليّ، ويجب إخباري بكل التفاصيل حتى أدرس عرضكم، هذا بديهي جدًّا.

تسو: ولِم وافقت على مهمة بهذه الخطورة؟

أجوس: المقابل المادي، هذا مصدر عيشي الوحيد.

تسو وقد فقد أعصابه: إذًا كل هذا كان مُرتّبًا له؟! لِم تسألني منذ مدة وأنت على علم بكل ما أخبرتك إياه، بل إنك تعرف ما لا أعرفه؟!

العجوز: كان ذلك كله من قبيل المصادفة، كان من المفترض أن أقابلك هناك في مساكن شركتكم للمرة الأولى، لكن القدر جاور بيننا في هذه الطائرة، أسئلتي الأولى كانت نقية تمامًا، كما أنني كنت أشعر بالفضول لمعرفة معنى الفرع الرئيس هذا..

ثم ضحك أجوس ضحكة مفتعلة، ممَّا ضاعف غضب تسو الذي نهره قائلًا: لا أجد هذه الظروف مضحكة تمامًا، ولا أعلم كيف خبأت ملامحك شعور الاندهاش الذي لابدَّ وأن أصابك في اللحظة التي علمت فيها أنني من سيقابلك هناك في بابوا.

أجوس وهو يحافظ على ابتسامته: أنت لم ترَ اندهاشي؛ لأنك كنت تنظر إلى النافذة.

ازداد غضب تسو من هدوء العجوز وسأله بنبرة تهكمية: لم قد أحتاج إليك في هذه الرحلة من الأساس؟ هل كل من يتنقل في بابوا يحتاج إلى أدلة؟!

العجوز بنبرته الواثقة: قطعًا لا، لكن قضية وو جينغ ستضطرك إلى الذهاب إلى بعض الأماكن التي ستضيع داخلها دون أدلة.

تسو: حسنًا حسنًا بلا ألغاز، أخبرني بكل ما تعرفه، الآن.

العجوز: لك ما أردت، اختفى وو بالأمس، 28 فبراير، ولم تفلح محاولات طاقم التأمين في العثور عليه؛ ولذلك فقد استعانوا بالشرطة المدنية في بابوا، والتي لم تضف أي جديد، اختفاء مهندس صيني على أرض بابوا دفع الشرطة المدنية لإخطار الجهات الإندونيسية، كما تعلم بابوا تابعة سياسيًّا لإندونيسيا..

قاطعه تسو قائلًا: من فضلك، حاول ألا تسهب.

بنفس الابتسامة الواثقة المستفزة لـ (تسو) أكمل العجوز قائلًا: حسنًا سأحاول، اطلعت الشرطة الإندونيسية على بعض التقارير الأمنية التي تشير إلى احتمالية ما بخصوص اختفاء وو، لكنها رفضت رفضًا قاطعًا مشاركة المعلومات مع طاقم التأمين الخاص بكم بحجة أنهم لم يتأكدوا منها البتة.

تسو: لطالما اعتبرونا دخلاء على وظيفتهم، وكرهوا وجودنا بينهم.

أكمل أجوس حديثه: ولهذا ارتأت الشركة أن محاولات التعاون مع الشرطة الإندونيسية ستستهلك الكثير من الوقت دون نتائج مضمونة، فبالتالي يجب عليكم حل الأزمة بأنفسكم، وبسؤال العميل الذي كان دوره تأمين وو، أشار إلى آخر نقطة ترك بها المهندس، هذه النقطة قريبة من مساحة تسكنها قبيلة بدائية وغريبة نوعًا ما، تسمى الكورواي، لذلك

أنا معك.

تسو: من استجوب جانغ لي؟

أجوس: عفوًا؟!

تسو: جانغ هو العميل الذي كان منوطًا بحماية المهندس، أنت من استجوبه؟

العجوز: لا بالتأكيد، بل الفرع الرئيس.

تسو: حسنًا، سأكمل استجوابه بنفسي، لكن الآن أخبرني بما تعرفه عن هذه القبيلة وما مدى خطورتها؟!

أجوس: الكورواي هي قبائل بدائية تعيش في بابوا داخل الغابات، ظلوا حتى وقت قريب بمنأى عن العالم أجمع، حتى أنهم كانوا يظنون أنهم وحدهم البشر على سطح الأرض، لا يغادرون بابوا أبدًا، وداخل المساحة التي يعيشون بها تتوزع نقاط النفوذ والقوة بين أفراد القبيلة، فكثيرًا ما يتقاتلون لأسباب عدة، وهذا سبب من أسباب عيشهم فوق الأشجار، يبنون أكواخهم على ارتفاع عالٍ؛ ليحميهم من هجمات الخصوم، بالإضافة إلى حمايتهم من الناموس الذي يتسبب في إصابتهم بمرض بغيض، وهو الملاريا طبعًا، كما أن هذا الارتفاع يقيهم من مياه الفيضانات، كما أنهم يلجئون إلى هذه الارتفاعات خوفًا من أرواح الشياطين الذين يهاجمونهم،

ومن ثَمَّ يتخذونهم كعبيد.

تسو: أرواح الشياطين؟!

أجوس: هذا هو اللقب الذي يطلقونه على هؤلاء الدخلاء الذين يباغتونهم ويستعبدونهم.

ظل مجتمع الكورواي على هذه الحالة حتى تم استكشافهم للمرة الأولى في سبعينيات القرن الماضي، رويدًا رويدًا أدركوا أنَّ لهم شركاء مثلهم في هذه الدنيا، بل وبدأوا في الاستثمار - كونهم آخر القبائل الحجرية على الأرض - بالتعاون مع العالم الخارجي عن طريق إجراء رحلات سياحية إليهم بصفة دورية يجنون من ورائها ما يرضيهم، لكن شابت هذه الرحلات الكثير من بلاغات الاختفاء للسياح دون تفسير معلوم، وعندما يتم استجواب أفراد القبيلة المقدر عددها بثلاثة آلاف إنسان دائمًا ما يلقون اللوم على أرواح الشياطين، ويتهمونها بالتسبب في اختفاء السياح، وهذا يتناسب مع إيمانهم بالأساطير والسحر الذي يبغضونه.

تسو: وهل توقفت الرحلات السياحية بسبب هذه الاختفاءات؟

العجوز: الكورواي يقطنون الغابات، وكثيرًا ما يختفي السياح في الغابات في كل بقاع العالم، لذلك فليس ضروريًا

أن يرجع سبب الاختفاء لتلك القبيلة، هناك مئات الاحتمالات.

ولهذا السبب لم تتوقف الرحلات السياحية لهذا المجتمع الذي جذب أنظار العالم، بل توالت المحطات الإذاعية بإجراء أفلام وثائقية لتوثيق حياة هذا المجتمع الغريب، وبالفعل حققت هذه الأفلام ملايين المشاهدات، وبدأ الأمر يروق للكورواي، حيث تحولوا من مجتمع عراة إلى محط أنظار العالم الخارجي كله!

تسو: مجتمع عراة! في هذا العصر؟!

أجوس: نعم هم كذلك، لا يقوم الرجال هناك بتغطية أي جزء من أجسادهم، أما النساء فالجزء السفلي فقط، وتشير بعض التقارير إلى أنهم يطلون بهذا الشكل في الأفلام الوثائقية؛ لأن المحطات الإذاعية تطلب منهم ذلك، وتحضهم وتكافئهم عليه لإنشاء محتوى دسم يجذب المشاهدين، لكن هذه نظريات لم يتم إثبات صحتها أبدًا، كما أن ما تراه داخل هذا المجتمع يؤيد بشدة كونهم مجتمع بدائي لا يعرف الملابس.

تسو: هل لديهم دين معين؟

أجوس: كما قلت لك هم يؤمنون بالأساطير، لكن في النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي بدأ بعض

المبشرين المسيحيين في التنقل والعيش بين الكورواي ودعوتهم للديانة المسيحية، لكن مجتمع الكورواي كان من أكبر المجتمعات المقاومة للأديان، وهذا لم يضعف من المحاولات المسيحية التي أفلحت أخيرًا بنهاية القرن الماضي وبدايات الحالي، حيث تم تعميد فرد من أفراد القبيلة، وأصبح أول معتنق للديانة المسيحية.

تسو: هذا غريب، مجتمع بدائي ينفتح على العالم بهذه الطريقة.

العجوز: يبدو غريبًا لك؛ لأنك تنظر للأحداث نظرة عابرة بعدما حدثت، لكنك إن عاصرت محاولات العالم في الاتصال بهم من بدايتها، ستشعر بمقدار الصعوبة في هذا التحول، فلقد ظلوا مناهضين للتعامل مع العالم الخارجي لوقت طويل، على سبيل المثال عندما حاول بعض الإنجليز توثيق حياتهم في فيلم وثائقي في تسعينيات القرن الماضي، عانوا الأمرينِ مع هذه القبيلة التي دائمًا ما تنزعج عند مشاهدة أحد البيض وسطهم، ويصفونهم بالشبح الأبيض، بالمناسبة هم أصحاب بشرة داكنة.

تسو: توقعت ذلك.

أكمل العجوز: وكي أجيبك عن سؤالك إجابة وافية، فإن كل مَن تواصل معهم أيقن تمامًا كونهم كارهين لهذا التواصل

حتى تاريخنا هذا، لكن يمكنك القول أنهم تطوروا ذهنيًّا، وقرروا على مضد قبول ذلك التواصل لما سيدره من منافعَ لهم.

تسو: الآن يمكنني استنتاج أنك سترافقنا حتى لا نضيع وسط هذه الغابات.

أجوس: ليس تمامًا، هذا سبب من الأسباب، فبالرغم من إيمان الكورواي أنهم شعب مسالم وطيب القلب، إلا أن الكثير والكثير من الشائعات قد طالتهم، لن أخبرك إياها الآن حتى لا تقلق، ودعنا لا نسبق الأحداث، فقد لا يرشدنا استجواب موظفيك إلى هناك من الأساس.

تسو: حسنًا أنا أيضًا أرجح ذلك، لقد وصلنا.

هبط العجوز مع الشاب القلِق من الطائرة، واتجه كل منهما إلى السيارة التي تنتظره مسبقًا حسب ترتيبات الشركة، وبعد بعض الوقت وصل كلاهما إلى مساكن الشركة في نفس الموعد تقريبًا.

تصافحا مرة أخرى، وداعب تسو العجوز قائلًا: لا أعلم هل أنا هنا لحل أزمة، أم لمرافقة عجوز تسعيني أعتني به!

ضحك العجوز ورد المزحة بقوله: لا تقلق يمكنني الاعتناء بنفسي وبك أيضًا.

***

قضى تسو -الذي يبدو ماهرًا في عمله- أغلب الليل في استجواب كل موظفيه، ودوَّن صغرى المعلومات قبل الكبرى، اطمأن على سلامة جميع أفراد بعثة التنقيب، بالإضافة إلى موظفيه المنوطين بحمايتهم، وأمرهم فورًا بقطع رحلتهم والعودة إلى الصين، ولن يبقى في بابوا سواه والعجوز وجانغ لي فرد الأمن الخاص بالمهندس المفقود.

بعد ذلك أخذ تسو يناقش العجوز في المعلومات التي جمعها، فكما ذكر جانغ لي فإن المهندس كان شديد النشاط، انتهى من عمل ثلاثة أيام في يومين، وفي اليوم الرابع قرر استكشاف بقاع جديدة قريبة من المنجم الأخير، وهذا المنجم هو الواقع بالقرب من الكورواي، بالطبع كان جانغ يرافق المهندس وو كظله، لكن الأخير كان يشعر بالضجر لذلك، وفي ذلك اليوم، همّ المهندس بركوب قارب ليعبر به النهر لاستكشاف الغابات، وعندما رافقه جانغ استشاط المهندس غضبًا ونهره بشدة، لكن جانغ أبى تركه وحده، حيث إن عمله يحتم عليه ذلك، فلجأ المهندس لاستعطاف جانغ وترجّاه لتركه بمفرده بعض الوقت ليستنشق الهواء في الغابات متعللًا بأن مهنة جانغ هي حمايته وقت العمل، أما الآن فهو يريد بعضًا من مساحته الشخصية حتى لا ينتحر

غرقًا في هذا النهر من شدة غضبه، بعد الكثير من المحاولات رضخ جانغ، واتفق مع المهندس على أن ينتظره في موقع المنجم بعد ساعة من الآن، عاد جانغ للمنجم، وركب المهندس وو القارب، ولم يعد أبدًا.

بعدما وبخ تسو موظفه جانغ بكل ما يحفظه من كلمات قاسية، أمره بالانصراف على أن يستعد للبحث عن المهندس المفقود بعد الفجر مباشرة عقب انقشاع الليل.

ثم انتقل تسو إلى العجوز أجوس يسأله عن الطريقة التي سيصلون بها إلى هناك، فأجابه تسو: سنستقل بعض وسائل المواصلات البرية والبحرية، وعلى مقربة من غابات الكورواي سأذهب وحدي إلى أحدهم، شخص أعرفه ويعرفني ويثق بي، لن يتم إخبارهم أبدًا بهويتكم الحقيقية، بل ستدخلون بهوية مزيفة، بصفتكم مسؤولين عن شركة سياحية تدرس إقامة بعض الرحلات إلى هنا، بعد ذلك سندخل ثلاثتنا الغابات مع هذا الرجل، ونبدأ في البحث عن المهندس، وكأننا نستكشف الغابات.

تسو: إذن ما اللغة التي يتحدثونها؟

العجوز: لغة خاصة بهم، أنا على دراية بما هو ليس بقليل منها، كدت أنسى، وجب عليّ تنبيهك أننا لن نستطيع المكوث في كوخ ذلك الرجل سوى ثلاثة أيام، فلتكن سريعًا لإنقاذ

حياة المهندس إلى جانب مهنة موظفك.

رد تسو شاردًا: ومهنتي أيضًا، فلي الحق في اختيار الموظفين، لكن أشاركهم العقاب على أخطائهم.

***

1 مارس 2020

أثناء الرحلة إلى الغابات أخبر العجوز تسو وجانغ أنه قد تواصل مع مسؤول من الشركة في ساعة متأخرة بالأمس، حيث استطاعت الشركة الوصول للتقارير الأمنية الإندونيسية، لم تأتِ احتمالية التقارير كما توقعنا أن المهندس ضل طريقه، بل أشارت إلى مقتله، وهذا هو الجزء السيء.

شعر تسو باعتصار بطنه ورغبة شديدة في القيء، لكنه تماسك وسأل أجوس قائلًا: وماذا عن الجزء الجيد؟

العجوز: لا يوجد جزء جيد، يوجد سيء وأسوأ، والأسوأ هو أن الغابات التي سنزورها الليلة ونمكث بها لأيام، تسكنها قبيلة يشار إلى تورطها في مقتله، الكورواي.

لم يستطع تسو التحكم بنفسه هذه المرة وتقيأ فوق حذاء جانغ، وما إن انتهى حتى صاح قائلًا: يا هذا، ألا يستطيع

لسانك التفوه بأي شيء مقبول؟!

فأجابه أجوس برباطة جأش: الشرطة الإندونيسية لم تلقِ بالًا لاختفاء المهندس، ولم تكلف نفسها عناء البحث، هذه التقارير التي تمتلكها هي تقارير صحفية أوروبية وأمريكية، وليس كل ما تتناقله الصحافة حقيقيًّا.

حاول تسو طمأنة نفسه بعد سماع ذلك من العجوز، وهو يشعر بمزيج من الهلع لما سمعه أولًا، والاشمئزاز من قيئه، إلى جانب الغضب من تواصل الشركة مع أجوس وليس معه.

***

مر حوالي نصف ساعة منذ أن وصلوا إلى أول الغابات، وذهب العجوز إلى ذلك الرجل الذي يعرفه من الكورواي، أخيرًا عاد أجوس وبصحبته رجل نحيف أسود البشرة وأحدب الظهر، بريبة صافح الرجل تسو وجانغ، ودون مقدمات استدار نحو الغابة وشق طريقه ليقودهم بروية.

بعد قطع مسافة ما قال رجل القبيلة إلى العجوز بضع كلمات، وفسَّرها العجوز لرفيقيه بأنه يجب عليهم العبور للجانب الآخر من هذا النهر أو القناة المائية الصغيرة لمتابعة الرحلة، ولا يمكن هذا العبور سوى بقطع شجرة ضخمة، فتقع لتصل بين ضفتي القناة المائية الجارية ليعبروا فوق هذه

الشجرة.

نظر تسو وجانغ إلى بعضهما البعض، وعرفا على الفور أنهما متورطان في هذه المسألة، التقط كل منهما فأسًا أخرجه رجل القبيلة من شيء أشبه بالحقيبة يلفه حول جسده العاري النحيل، ثم تناوبا على ضرب شجرة ما، كان رجل القبيلة قد أشار لهما بضربها، بعد بعض الوقت انهارت الشجرة، وكان لهم ما أرادوا بالعبور لمواصلة رحلتهم.

أثناء الرحلة قابلوا عددًا ليس بقليل من أفراد الكورواي، أجساد سوداء عارية نحيلة، ملامح قاسية وتجاعيد شديدة، كما قال العجوز تمامًا، الرجال لا يغطون أي شيء من أجسادهم، والنساء الأجزاء السفلية فقط، ويحملن الأطفال على رؤوسهن، وللجميع شعر متجعد شديد الاسوداد، وشفاه غليظة داكنة، البعض يقوم بالصيد، والبعض يشعل النار بطريقة بدائية جدًّا، والبعض جالس في كوخه على ارتفاع عالٍ، والجميع ينظر بتشكك.

في منطقة ما نبَّه أجوس رفيقيه بوجوب الابتعاد تمامًا عن الأشجار أثناء السير داخل هذه المساحة، حيث إنها يطلق عليها المنطقة المحرمة، ولا يحق سوى لقائد الكورواي نفسه كسر الأشجار هنا.

بصوت هادئ -استفز تسو الذي ينخلع قلبه رعبًا- سأل جانغ

قائلًا: لِمَ تتغطَّى جذوع الأشجار المقطوعة بأوراقها هكذا؟

أجابه العجوز: في هذا التقليد يقوم الكورواي بلف أوراق الأشجار بإحكام فوق الجذوع المقطوعة كما ترى تكريمًا لموتاهم، والذين يظنون أنهم سيبعثون للحياة مرة أخرى بالمناسبة..

تسو: ولِمَ يتمُّ قطع الأشجار من الأساس؟!

العجوز: هذه الأشجار تسمى أشجار الساغو، وهي الوحدة البنائية التي يقوم عليها مجتمع الكورواي، فحشو الساغو الداخلية يقومون بطهيها بطريقة ما، واستخدامها في جميع أنواع الطعام، لا يملكون الملح ولا التوابل، ولكنهم يملكون حشو الساغو، أما أخشاب الأشجار نفسها فيستخدمونها طبعًا في البناء، الرجال هنا مكلفون بالبناء والصيد وحماية الأكواخ، أما النساء فبالطهي وتربية الأطفال ومساعدة الرجال في بعض أعمالهم أحيانًا..

بعد القليل من الوقت وصلوا إلى كوخ رجل القبيلة الذي يرافقهم، كان كوخًا أرضيًّا مناسبًا لهم تمامًا، وأراحهم من عبء الأكواخ العالية، تفحَّص تسو الكوخ البسيط وراع انتباهه بعض الرماح، فسأل العجوز عنها، فطِن رجل القبيلة أن تسو يسأل عن هذه الرماح، فاتَّجه نحوه وأمسكها بالترتيب، وقال بعض الكلمات، ترجمها العجوز لتسو مخبرًا

إياه بوظيفة الرماح أثناء عملية الصيد، كل على حدة.

جلس الجميع داخل الكوخ للارتياح بعد هذه الرحلة، بعد فترة من الصمت طلب جانغ من العجوز بكسر هذا الفتور وإخبارهم ببعض المعلومات عن هذا الشعب، وخصوصًا أكلهم، والذي لابد أنهم سيعتمدون عليه في قادم الأيام.

أجاب العجوز: حسنًا، كما تعلم هو مجتمع بدائي لا يمتلك الكثير من الوصفات أو ما شابه، هم يعتمدون على نظام غذائي نباتي شبه كلي، بالإضافة إلى أنهم يأكلون الحشرات يوميًّا تقريبًا، كما أخبرتكم تعتبر الساغو أشهر أكلاتهم، ويصنعونها من لبابة الجذوع بعد طحنها وتحويلها إلى عجين.

ويعتمدون على الطبيعة كليًّا، في البناء والغذاء، وصناعة الأقواس والرماح ووسائل الدفاع عن النفس، ووسائل قطع الأشجار، كما أنهم يعتمدون على وصفات مختلفة يصنعونها من الأعشاب لعلاج جميع الأمراض.

تسو: ماذا عن طقوسهم؟!

العجوز: لديهم بعض الطقوس غير المفهومة حتى الآن، القليل من معتقداتهم معروف، مثلًا كالموت، هم يعتقدون أن الموت يحدث بسبب الـ «خاخوا »، وهي الأرواح الشريرة

التي تقتل أرواحهم لتستولي على أجسادهم كما يتصورون.

جانغ: عذرًا على الخروج من الموضوع، لكن ماذا تحمل داخل تلك الحقيبة؟ أردت سؤالك عنها منذ بداية الرحلة.

أجوس: بعض الأغراض التي قد نحتاجها في قادم الأيام.

تسو: إذًا متى سنبدأ البحث؟!

أجابه أجوس قائلًا: الليلة لن نقوم بأي شيء، من الغد يبدأ البحث، هم يعتقدون كما أخبرناهم أنكما قادمان من أستراليا لأغراض سياحية، فمن الطبيعي أن تستريحا في يومكما الأول من عناء الرحلة، هذا حتى لا نثير الشكوك ليس أكثر.

جانغ: إذًا لدينا يومان، هلا أخبرتني يا عجوز كيف تواصلت معك الشركة؟

أجوس: رسالة نصية على هاتفي، أشارت إلى تلك التقارير الصحفية التي أخبرتكما بشأنها.

جانغ: ولماذا ترَى الشركة هذه القبيلة بهذه الخطورة؟

أجوس: هناك الكثير من الشائعات عنهم، لكن أُفضل عدم إخبارك إياها كما فعلت مع تسو، على الأقل حتى نخرج من هذه الغابات ونعود إلى مساكن الشركة الآمنة، هذا لمصلحتكما حتى لا يصيبكما الخوف دون داعٍ.

شعر جانغ بعدم الارتياح لما سمعه حالًا، وودَّ لو أنه يستطيع الضغط على العجوز حتى يخبره بتلك الشائعات التي تجعل تلك القبيلة مصنفة كشعب خطر في نظر شركتهم، لكن تسو بادر قائلًا: حسنًا، بما أن اليوم سيذهب سُدًى، فمن الأفضل أن نأكل ثم ننام حتى نستيقظ فجرًا، ونستغل ما يمكننا استغلاله من الوقت.

حظِي هذا الرأي بالموافقة، لاسيما بعد التعب الذي أصاب الجميع أثناء هذه الرحلة الشاقة، إلى جانب الصعوبة التي سيواجهونها حتى يخلدوا إلى النوم في هذا المكان العجيب.

***

2 مارس 2020

بعد انتصاف الليل استيقظ تسو للمرة التاسعة تقريبًا منذ أن حاول النوم، كالعادة يصيبه القلق ثم يكافح نفسه حتى يغفو مجددًا، لكن هذه المرة طالت المحاولة دون جدوى، اعتدل تسو وأسند ظهره على حائط الكوخ، وأخذ يقلّب نظره بعينين نصف مفتوحتين، أحسَّ بأن إضاءة الكوخ أصبحت خافتة قليلًا مقارنة بآخر مرة استيقظ فيها، كان العجوز قد أخرج ثلاثة مصابيح من حقيبته للإنارة، حتى إذا ما استفاق أحدهم ليلًا لا يجد الكوخ دامس الظلام ويفزع فزعًا إضافيًّا، بالفعل المصباح الثالث ليس في الزاوية كما

كان حينما خلدوا إلى النوم، شعر تسو بالقلق، لكنه سرعان ما استراح بعدما رأى رجل القبيلة صاحب هذا الكوخ مستلقيًا يغط في نومه في هذه الزاوية، كان هذا الرجل مستيقظًا حينما اتجهوا هم إلى نومهم في آخر ساعات النهار، من المؤكد أنه أزاح المصباح من مكانه حتى ينام، لكن بعد أقل من دقيقة، أصابت تسو نوبة هلع، شعر وكأنه لم يجرب مثلها طيلة سنوات حياته الخمسة والثلاثين، لقد وجد العجوز نائمًا وحده، جانغ قد غادر مكانه!!

هب تسو من مكانه غير مدرك لما يجب عليه فعله، تزاحمت الأفكار بعقله، هل عليه إيقاظ العجوز وإحداث جلبة؟ لا لا يجب عليه التصرف بنفسه في هدوء حتى لا ينزعج صاحب الكوخ، بخفة خطى خطوتين نحو الخارج، لكن الظلام الدامس وأصوات الحيوانات أعادته إلى مكانه أكثر ارتعادًا، خطرت على باله فكرة، بسرعة دس يده في جيبه لإخراج هاتفه الجوال ومحاولة إيجاد جانغ بهذه الطريقة، لكن سوء الحظ قد اكتمل حينما وجد بطارية الهاتف فارغة تمامًا، أعاد هاتفه إلى مكانه وهو حائر كطائر فقد سربه، بعد دقائق من التفكير اتخذ قراره بإيقاظ العجوز لمساعدته في هذه الورطة، ببطء -حتى لا يستفيق صاحب الكوخ- انحنى تسو نحو العجوز لإيقاظه، لكن شيئًا ما منعه من ذلك..

ورقة مطوية سقطت من جيب قميصه، وليس من عادته الاحتفاظ بأي شيء في هذا الجيب، التقط تسو الورقة المألوفة بالنسبة له، عليها العلامة المائية التي تمثل شعار الشركة! لابد أن هذه الورقة عائدة إلى دفتر جانغ الذي يحمله معه دومًا ككل موظفي الشركة، بعد فتح الورقة تأكد تسو من ذلك، حينما رأى خط جانغ المشهور قد كون سطورًا على وجهي الورقة، لكنه لم يستطع قراءتها كاملة بسبب الإضاءة الخافتة في موقعه، التهبت مشاعر تسو كما قرقرت بطنه، لكنه قاوم كل هذا الأدرينالين وتأنَّى في حركته حتى لا تصدر أخشاب الكوخ أي صرير من تحته، اقترب من المصباح ثم حمله بيسراه ليقرأ الورقة التي تلتقطها يمناه..

« أنا آسف، لم أستطع النوم لما قاله العجوز، بطريقة ما توصلت إلى التقارير التي يقصدها، وما قرأته بها عن هذه القبيلة منعني من البقاء بالكوخ دقيقة أخرى، أحفظ الطريق الذي سلكناه جيدًا، سأرجع للنهر وأتدبر أمري من هناك، إن بقيت للصباح لم أكن لأقنعك بالعدول عن خطتك، لا يمكنني إخبارك بما قرأته حتى لا تفقد عقلك مثلي، تسو أرجوك عد فور بزوغ الفجر، سألقاك في مساكن الشركة، لا يهمني أن أفقد وظيفتي، لا زلت في العقد الثالث من عمري وسأجد غيرها طالما نجوت بحياتي من هنا، اعذرني، لدي أطفال».

موظفكم المخلص جانغ.

أنهى تسو قراءة الرسالة في نفس اللحظة التي هبَّت فيها كل موجات الذعر بداخله، سال عرقه وشعر بحرارة جسده وكأنه بفوهة بركان، جلس القرفصاء مستندًا برأسه على ركبتيه في محاولة يائسة لتهدئة نفسه، ماذا عليه أن يفعل؟ ما الذي قرأه جانغ وأخافه للدرجة التي جعلته يخاطر بوظيفته؟ جعلته لم ينتظر للصباح على الأقل!

هل علي اتخاذ نفس القرار؟

مئات الأسئلة التي طرحها تسو على نفسه ولم يجد لها جوابًا، حتى وصل إلى السؤال الذي قصم ظهره!

بالأمس، لماذا تواصل الفرع الرئيس مع العجوز بدلًا مني؟ مَن منا الموظف بهذه الشركة؟ ولماذا لم تخبرني بأي معلومات تخصه منذ البداية؟ هل هذا منطقي؟ لماذا اضطر إلى الانتظار حتى الوصول إلى مساكن الشركة هنا للالتقاء به؟ وهل من الطبيعي أن تجمعني به الصدفة على متن الطائرة؟! ربَّاه ماذا يحدث لي؟

هل هذا فخ؟ سيتم إيقاعي!!

لابد وأنهم قد أوقعوا بوو من قبلي، والآن دوري، للمساومة على أموال أو ما شابه!

سحقًا لك جانغ لمَ لمْ توقظني لنغادر سويًّا؟!

ضغط تسو بيديه على رأسه وكأنه يحاول كبح جماح عقله، وفي غضون دقائق كان قد حسم قراره.

التقط المصباح مرة أخرى واتجه إلى خارج الكوخ بعد أن خلع حذاءه حتى لا يصدر صوتًا وهو يركض في الغابة، سيعود إلى مساكن الشركة، أو سيحاول.

بتريث تحرك تسو في الاتجاه الذي يتذكره وهو يتصبب عرقًا، عيناه يقظتان وعلى تمام الجهوزية لالتقاط أي مصدر ضوء، إن كان الضوء عائدًا للنيران البدائية فهو يخص أفراد القبيلة، وإن كان لمصباح مثل الذي يحمله فغالبًا هو لجانغ، فمن الممكن أن يكون جانغ ما زال قريبًا، لا أحد يعلم متى غادر بالضبط..

بعد خطوات قليلة تعثر تسو وسقط على وجهه في الحال، ارتطم بالأرض وانفتح حاجبه، والأدهى أن المصباح قد فقد جزءًا من إضاءته بعد اصطدامه بالأرض، قام تسو حاملًا مصباحه مرة أخرى، هذا الضعف الذي أصاب الإضاءة كان في مصلحته، فقد يقلل ذلك من فرص اكتشافه بواسطة رجال القبيلة، هكذا اعتقد تسو، أو هذا ما طمأن به نفسه.

نصف ساعة من الخطى الحذرة، ولا يعلم تسو إن كان

طريقه كان صحيحًا أم لا من الأساس، لكن بعد بعض الوقت، وصل تسو إلى المنطقة المحرمة، وتعرف عليها بواسطة الشجرة المقصوصة التي أخبرهم العجوز بشأنها، كان يحفظ شكلها.

دقائق أخرى أمضاها تسو وهو يخرج من المنطقة المحرمة التي أعطته دفعة قوية بطمأنته أنه على الطريق الصحيح، وما إن خرج من هذه المنطقة حتى استقبل دفعة معنوية أقوى من سابقتها، هذا الضوء من بعيد هو ضوء المصباح، لابد أن هذا هو جانغ!!

بسرعة أكبر لكن بنفس الحذر كان تسو يقطع المسافة التي تفصله عن الضوء المتواري خلف الأشجار الكثيفة، وكلما اقترب كلما أحس بارتفاع مصدر الضوء، هو متأكد أنه صادر عن مصباح مثل الذي يحمله، لكن ساورته الشكوك، من الارتفاع، أم أنه انعكاس بطريقة ما؟!

كما أن الضوء كان ثابتًا تقريبًا في مكانه، من المستحيل أن جانغ قد قرر الاستراحة في وسط الطريق مثلًا، من الممكن أنه قد أصيب، الغابة مليئة بالحيوانات، ومليئة أيضًا بالكورواي..

ببطء تقدم تسو وهو يقلب كل الاحتمالات داخل عقله، جانغ يستريح، جانغ قد هوجم عن طريق خنزير، أو أسر

بأصفاد الكورواي، من الممكن أيضًا أن جانغ قد اجتاز الغابة، وأن هذا الضوء عائد لسائح قد ضلَّ طريقه! أو أن جانغ قد ترك مصباحه هنا حتى لا يلفت الأنظار على الشاطئ!

ارتاح تسو لهذا الرأي الأخير، لكنه تقدم بحذر أكبر، ومع الخطوات القليلة القادمة بدأ يسمع أصوات عديدة عالية، لا يفهم منها أي شيء البتة، تشبه تلاوات السحرة والمشعوذين التي نراها في الأفلام، أحرف عديدة سريعة بلكنة غريبة تشبه تلك التي يملكها صاحب الكوخ!

يا إلهي، إنهم هم، الكورواي، لابد أن تلك أصواتهم، وهذه اللغة الغريبة عائدة لهم، كانت الأصوات المختلفة كثيرة، للحد الذي دفع تسو للاعتقاد بأن أغلب رجال الكورواي يجتمعون في هذا المكان الآن لإجراء طقس ما، وهذا يفسِّر عدم مقابلته لأي فرد منهم منذ خروجه من الكوخ، لكن من الممكن أن يكونوا نيامًا، وماذا أيضًا عن ضوء المصباح؟!

احتمى تسو بشجرة ضخمة في هذه المنطقة التي أخبرهم أجوس في البداية بكونها غير مخصصة لبناء الأكواخ، وأن الأكواخ تقع في الجهة المقابلة بعد المنطقة المحرمة، عندما تذكر ذلك شعر ببعض الارتياح لاجتيازه منطقة الأكواخ، لكنه الآن أمام معضلة كبرى، هناك ضوء، وهناك الكثير من الجلبة والجنون، لكنه إلى الآن لا يراهم بسبب كثافة الأشجار، تردد

فيما يجب عليه فعله، هل يعود من حيث أتى؟ لكن هذا خبل بكل تأكيد، قد يصادف أحد الكورواي في عودته، وكيف يعود وقلبه قد أفتاه بما لا يدع مجالًا للشك أن هذا العجوز دبَّر له مؤامرة متقنة، فكر فكر فكر.

في النهاية، ارتأى تسو أن في حال عودته فهو هالك لا محالة، أما الآن فلديه بصيص أمل، على الأقل لديه فرصة للنجاة، عزم أمره ووضع خطته سريعًا، سيتقدم بحذر شديد نحو مصدر الضوء، سينتقل من خلف شجرة إلى أخرى، وعندما يتمكن من رؤية تجمع الكورواي، سيبدأ في الحركة عرضيًا ليبتعد عنهم تمامًا، ومن ثمَّ يواصل تقدمه للأمام، وبذلك فإن تجمع الكورواي هذا كان في صالحه، فبمجرد تفادي هذا الجمع سيصبح في أمان تام، وستفصله دقائق معدودات عن الوصول للنهر الذي لابدَّ وأنه خالٍ تمامًا من الكورواي أثناء تجمعهم بالغابة هكذا.

استجمع تسو كل ذرة تركيز يمتلكها، وشحن همته بالأمل، وتقدم رويدًا رويدًا، من خلف شجرة إلى أخرى، هكذا حتى رآهم، عدد كبير من الكورواي يتجمهرون حول شيء، لا يهم، الآن يجب عليه اتخاذ الخطوة الثانية بالتحرك حركة عرضية، لكن شيئًا ما منعه من ذلك، مصدر الضوء! بالأسفل كانت هناك بعض شعلات النيران، إما بالأعلى على فرع

شجرة ما، قد عُلق مصباح متوسط الحجم مألوف الشكل، تمامًا كالذي يحمله تسو في نفس اللحظة، ارتعد تسو وبالغ في اختبائه، وأخذ ينظر بعين واحدة، بينما تحتمي الأخرى خلف الشجرة، دقق النظر أكثر، التجمع من الرجال فقط، لا نساء ولا أطفال، البعض فوق الشجر والبعض يقفون ويتمايلون لتأدية حركات غريبة، والقليل يجلسون في نصف دائرة تحيط بشيء ما، لم يهتم تسو بماهيته في البداية، لكن الآن تحرك قليلًا ليسمح بالرؤية الكاملة لعينيه بعد أن ضيقهما لزيادة حدة نظره، ويا ليته ما فعل!

المصباح على الشجرة يعود لجانغ هذا لا ريب فيه، وهذا الشيء الذي يحيطون به هي جثته! جانغ ملقًى على وجهه، والسبب الذي عطل تسو عن اكتشاف أن الشيء المُحاط به هو جثة بشرية، أن رأس جانغ كانت مفصولة عن باقي جسده، وكذلك أطرافه التي وُضعت فوق ظهره في مشهد بالغ الفظاعة، تسو الذي كان على بعد خطوات قليلة من الابتعاد عن هذه الغابات، ارتعدت فرائصه في هذه اللحظة وشلّت أطرافه تمامًا، وفيما كان يحاول استيعاب ما رآه، فقد أنفاسه بعد أن أحكمت يد نحيلة على فمه وأنفه بقوة، لم يقوَ تسو على الاستدارة حتى، بل تراخى جسده وتكوّم خلف الشجرة منتظرًا مصيره المحتوم، لكن اليد التي حرمته الهواء قد تراخت هي الأخرى وجذبته من شعره ليستدير،

غير معقول!! أجوس العجوز!!

أشار العجوز بسبابته على فمه بما معناه الصمت، وهذا ما التزم به الشاب المذهول، ليس تنفيذًا لطلب العجوز، بل لأنه غير قادر على الحديث أصلًا، سحب أجوس يد تسو الذي جاهد وتململ على الأرض حتى يلحق به، عاد العجوز بالشاب المسكين إلى الخلف لمسافة قليلة، واختبأ خلف الشجرة الأضخم بالغابة تقريبًا..

العجوز: ما الذي فعلته يا بني، لماذا تركت الكوخ وأين صديقك؟!

انفجر تسو في البكاء، فبادره العجوز فورًا بكتم صوته حتى لا ينفضح أمرهما، بدأ الصيني في كفكفة دموعه والتحدث بنبرة متهدجة قائلًا: لقد قتلوه، استيقظت ولم أجده بجواري، لكنني وجدت منه رسالة مفادها..

قاطعه أجوس قائلًا: لقد قرأتها، حينما خلعت حذاءك وخرجت من الكوخ أيقظتني، ظننت أنك تخرج لقضاء حاجتك فلم أرد إحراجك، حينما طال غيابك أصابني القلق، هممت بالتقاط مصباح فلم أجد جانغ هو الآخر، ووجدت ورقة ما بأرض الكوخ، كانت رسالته، وفهمت منها أنك لبيت دعوته، خرجت مسرعًا بمصباحي خلفك، والحمد لله أني وجدتك، أخبرني كيف تأكَّدت أنه هو القتيل؟

تسو وهو يبكي ويضع يمناه على جبينه: من ملابسه ومصباحه..

العجوز: كان شابًّا طيبًا، لكن الآن أنصت لي، لا وقت لدينا، يجب عليك..

قاطعه تسو قائلًا: ما فحوى تلك التقارير التي أصابته بالرعب والجنون حتى لقي حتفه بهذه الطريقة؟؟

العجوز هامسًا: أرجوك يا بني، لا وقت لذلك الآن، لقد أخبرت صاحب الكوخ أنكما تقضيان حاجتكما، وأنني سأخرج للعودة بكما، تذمر الرجل لأنه وجد رماحه تنقص واحدًا، لكنني أقسمت له أن لا علاقة لنا بذلك، لابد أنه قلق من تأخري وخرج ليبحث عنا، أو ليبلغ أفراد قبيلته، وهذا الرمح المفقود سيزيد من قلقه، أرجوك لا يوجد وقت.

تسو: لن أستطيع الوثوق بك حتى تخبرني، إن أردت استغلال الوقت فعليك إخباري بأسرع ما يكون..

لأول مرة بدت على العجوز علامات الانزعاج، وتخلَّى عن هدوئه الوقور، بحركة سريعة أخرج هاتفه الجوال ولمسه بإصبعه لمسات سريعة كمراهق يتقن الهواتف الخلوية ببراعة، ثم وجَّه شاشة الهاتف لتسو الذي بدأ يقرأ تقريرًا يعرضه أحد المواقع الأوروبية، جاء نص التقرير كالتالي..

أفاد موقع «ورلد نيوز ديلى ريبورت» أن العشرات من أفراد قبيلة نائية في بابوا غينيا الجديدة أصيبوا بفيروس يُسمَّى كورونا، بعدما قيل: إنهم قتلوا وذبحوا وأكلوا مهندس تعدين صيني مصابًا بهذا المرض، ولقي 14 فردًا من قبيلة كورواي مصرعهم، وجاءت نتيجة اختبار 87 آخرين إيجابية بفيروس (كوفيد 19) على مدى الأيام القليلة الماضية في القبيلة، بعد عدة أيام من التحقيق الشامل، تعتقد السلطات الحكومية أنها ربما وجدت في النهاية سبب التلوث الغامض لهذه القبيلة المعزولة للغاية، فقد قال العديد من أفراد القبيلة أنهم مرضوا بعد تناول «روح الشر الصفراء»، حسب ذات الموقع، ووفقًا للملازم جيمس مانينج من شرطة بابوا غينيا الجديدة، الشرطة الوطنية للبلاد، فقد يفسِّر ذلك اختفاء المهندس الصيني وو جينغ البالغ من العمر 57 عامًا في المنطقة في نهاية فبراير.

وتم الإبلاغ عن فقدان المنقب لمجموعة زيجن الصينية في 28 فبراير الماضي بعد أربعة أيام من وصوله إلى الصين.

وزعم أن شيوخ القبائل أكَّدوا أنه شيطان، ويجب قتله قبل أن يتأذى أحد، وبالفعل قامت قبيلة الكورواي التي مازالت تمارس طقوس تناول البشر حتى الآن بقتله وتناول لحمه، ممَّا أدى إلى انتقال الفيروس التاجي إليهم جميعًا، ولم ينج

من القبيلة سوى الأطفال تحت سن الثانية عشر؛ لأنهم لا يشاركون في هذه الطقوس.

وفقًا للدكتور فريدريك ميرفي، أحد الأشخاص القلائل الذين سُمح لهم بزيارة القبيلة، فإن كل شخص بالغ في القرية مصاب، وأنَّ قبيلة كورواي هي واحدة من آخر القبائل المعروفة في العالم التي لا تزال تمارس أكل لحوم البشر، حيث يعتقدون أنه من الضروري قتل وأكل شخص يعتقد أنه تم الاستيلاء عليه من قبل الخاخوا، وهو نوع من الروح الشريرة أو الشيطان.

كما يعاني العديد من أفراد القبيلة من مرض شديد، لكن عزلتهم تجعل من المستحيل نقلهم إلى المستشفى، وقد وعدت حكومة بابوا بإرسال أطباء ومستحضرات صيدلانية لمساعدتهم على التعامل مع الوباء، لكنها تخشى من أن المرض قد يقضي على القبيلة بالكامل.

قرأ تسو ما قرأ ولم ينبس ببنت شفة! بل ظل محدقًا في وجه العجوز فاتحًا عينيه وفمه على مصارعهم، بدأ العجوز في التحدث سريعًا لتأهيل تسو لخطة الهرب: هذا التقرير يحتوي على الكثير من الهزل، الشرطة الإندونيسية تأكدت من كثرة الأخطاء فيه، كما ترى لم تتحرك شرطة بابوا لفعل شيء، كما لا يوجد هنا مصابون ولا فيريدريك ميرفي ولا

غيره، وأين تلك المستحضرات الصيدلانية؟!

تسو التائه: ولماذا يؤخذ التقرير بعين الاعتبار إذن؟

العجوز: لأن ذلك الخبر عن أن الكورواي يأكلون لحوم البشر ليس مبالغًا فيه، نعم هذا ما كنت أريد إخفاءه عنك حتى العودة، أشهر معلومة متداولة على الكورواي هو أنهم يأكلون لحوم البشر، حيث أشاع بعض المراسلين الصحفيين والعلماء ومسجلو الأفلام الوثائقية أن أفراد القبيلة اعتادوا التهام أجساد الأموات، كنوع من الانتقام من الأرواح الشريرة التي تهاجمهم، وتتسبب في موت صاحب الجسد، كوقاية من شرها، ولكن ما زال هذا الاعتقاد غير كامل الملامح، أرجوك لا أستطيع توضيح ما هو أكثر من ذلك الآن، يجب علينا النجاة أولًا.

بدأ تسو في الاستفاقة من هول الموقف، لكنه سأل وهو يقف على قدميه: إذًا هل قتلوا جانغ ليأكلوه؟ وهل من الممكن أن يكونوا قد فعلوا ذلك فعلًا مع المهندس؟

العجوز: بخصوص المهندس فلا أعلم أكثر مما تعلمه، لا أحد يعرف مصيره، من الممكن أن يكون ما زال حيًّا إلى الآن، أما بخصوص جانغ فلقد رأوه معنا بالأمس بهوية معينة، ثم الليلة رأوه يعدو في هذه الغابة ومعه رمح من كوخ أحدهم، لابَّد أنهم ظنوا أنه سيهاجم أحدهم أو حيواناتهم، وبذلك

فلابدَّ أن الشك أصابهم حيالنا أيضًا، حتما سينتهون من الطقوس مع جانغ ويتجهوا للبحث عنا؛ لذا أنصت لي، فرص النجاة سويًّا تكاد تكون منعدمة، لن أكون برشاقتك، ستعدو مسافة ما بالعرض، ومن ثم تتجه طوليًّا إلى الشاطئ، لم يبق سوى القليل جدًّا جدًّا، لكن عليك الإسراع.

تسو: هذا غير ممكن أبدًا، لن أتركك هنا لتؤكل بدورك، ستأتي معي.

أجوس بعصبية: لقد أهدرنا الكثير من الوقت، لن يفلح ذلك، افعل ما أطلبه منك رجاءً، إن وجدونا سويًّا الآن سنهلك..

تسو: وماذا ستفعل وحدك؟!!

العجوز: سأعود إلى صاحب الكوخ وأحاول إقناعه بأنكما مفقودان، سأحاول كسب بعض الوقت حتى أتملص منه وأخرج من الغابات بما تسمحه لي سرعتي، الأهم أن ألحق به قبل أن يتجه إلى قبيلته.

تسو: لا لا، لا يمكن ذلك أبدًا، هذا غير مقنع على الإطلاق، ما ينبغي فعله هو أن تأتي معي ونذهب سويًّا الآن بينما هم مشغولون بطقوس جانغ، أما إذا بقيت فكما قلت سيتجهون للبحث عنك وقتلك، لا تقدّم نفسك كطعم حتى أنجو أنا، لن أتركك.

في اللحظة التي بدأ فيها العجوز بالاقتناع بوجهة نظر تسو، كانت أصوات الغناء قد توقفت، وتبدلت بأصوات أقدام مسرعة قادمة إليهما من ناحية الضوء.

توتر تسو لكن العجوز تحدث مسرعًا: لابد أننا نسينا أنفسنا وارتفع صوتنا، لا تتناقش معي البتة إن وجدونا معًا ستتأكد شكوكهم حيالنا، سأحاول إقناعهم بأي شيء، لحظات وسيصلون إلينا، الآن، اهرب.

أتم العجوز كلماته ودفع تسو الذي همَّ بالهرب بعدما أيقن صحة حديث أجوس، فلو وجدوهما معًا سيتأكدون أنهما كانا يراقبان المشهد، وعلى مقربة من جانغ، وعلى اتفاق معه، أما الآن فلابدَّ وأنَّ للعجوز حيلة ما سيحاول إقناعهم بها.

بينما انتهى تسو من عدوه العرضي واتجه للركض الأفقي، كان يسمع العجوز لا يتوقف عن الصياح ليحاول إخفاء صوت ركض تسو حتى يبتعد، وأيضًا ليتظاهر بأنه يستنجد بالكورواي، وكأنه يستدعيهم ولا يراهم، بدلًا من أن يجدوه مختبئًا وتسوء ظنونهم أكثر وأكثر.

بعد فترة من الركض بمأمن عن الكورواي، وصل تسو إلى النهر، لكن الأجواء باتت ضبابية فجأة، وفقد وعيه من شدة الإعياء، ثم سقط على الأرض إلى جوار النهر، مجهول المصير، تمامًا كالعجوز.

***

- مهلًا، أين أنا؟؟ من أنت؟؟

= اهدأ ولا تقلق، أنت هنا في مساكن الشركة بسلام.

- ها؟ ماذا حدث؟ وكيف جئت إلى هنا؟ أنا لا أتذكر أي شيء! ومن أنت؟

= أنا ألدو، من عناصر الشرطة الإندونيسية، أثناء قيام إحدى دوريات الشرطة المحلية ببابوا بتمشيط النهر، تم العثور عليك ملقًى إلى جانبه، اضطروا إلى البحث في مقتنياتك، ومن جواز السفر الخاص بك تم التعرف عليك وإعادتك إلى هنا.

تسو: والعجوز! ماذا حدث لأجوس.

ألدو: أنا هنا لتخبرني أنت بذلك.

بدأ تسو يستعيد ذاكرته وقصَّ على فريق الشرطة الإندونيسي كل ما يتذكره عن ليلة أمس، وما أن سمع ألدو تلك التفاصيل حتى كاد يفقد صوابه، اتهم شركة التأمين الصينية بالغباء، والمزايدة على عمل الشرطة الإندونيسية، وشرح لتسو كيف أن عناصر الأمن الإندونيسي فندت كل تلك التقارير المتداولة بشأن اختفاء المهندس، وتواصلت مع

الشرطة المحلية بغينيا الجديدة، وهي نفت تمامًا التصريحات المزعومة على لسان ملازم يدعى جيمس مانينغ، لا يعلمون إلى الآن إن كان هناك ملازمًا بمثل هذا الاسم من الأساس.

وفسّر أن تلك المواقع الأجنبية التي تداولت الخبر اقتبسته من موقع كان له الريادة في رواية هذه القصة، وهذا الموقع معروف عنه نشر القصص الزائفة على سبيل المزاح، لكن موجة الذعر التي تضرب العالم خوفًا من فيروس كورونا المستجد جعلت من تلك القصة بالتحديد مثار جدل، وجذبت أنظار العديد والعديد من المواقع الإخبارية على مستوى العالم أجمع، خصوصًا أنها تستند على خبر حقيقي، وهو اختفاء المهندس وو جينغ، إلى جانب الاستناد أيضًا على معلومات شهيرة تخص الكورواي، مثل بدائيتهم وأكلهم للحوم البشر.

تسو: إذًا هل هذا الأمر بخصوص أكل لحوم البشر حقيقي؟!

ألدو: بالتأكيد كان حقيقيًا، وأقصد بكان أن قبيلة الكورواي كانت تتناول لحوم البشر بصفتها قبيلة بدائية، وهذا طبيعي، لكن مع بدء الإقبال السياحي عليهم، شرعوا في نفي هذا الأمر، والاعتراف بأنه كان من عادات الماضي السحيق، حيث يشيرون إلى أن أكل لحوم البشر قد أدّى بشكل أو بآخر

لإصابتهم بمرض يسمى مرض الضحك تقريبًا، أما الآن فإنهم قد تخلوا عنه تمامًا، لكن العديد من الأفلام الوثائقية تروي غير ذلك.

على سبيل المثال: روى أحد قادة الكورواي لقناة وثائقية عربية شهيرة أنه في ذات مرة خطف أحدهم نجلته، وما إن وجدوا الخاطف حتى قطعوا لحمه وأكلوه، وأفلام أخرى روت أنهم لا يأكلون سوى جثث الأعداء، أو السحرة الذين يقتلونهم؛ لأنهم يمثلون الشر بالنسبة لهم، كما تنتشر الشائعات أنهم يفضلون أكل الأدمغة فور قتل الجثة حتى يلتهموا الأفكار التي تملأها وهي طازجة!!

فبالتالي رتبت بعض التقارير هذه المعلومات وخلصت منها بالإشارة إلى أن الكورواي في بادئ الأمر نفوا أنهم مستمرون في أكل لحوم البشر، وأرجعوا سبب اختفاء السياح وما شابه إلى أرواح الشياطين، ولكن بعد ذلك بدأت القنوات الوثائقية في إغرائهم وحثتهم على ذكر تلك القصص في أفلامهم حتى تجذب المزيد من المشاهدين، كما تشير التقارير إلى أن الكورواي أنفسهم رأوا أن ذلك سيزيد من الرحلات السياحية إليهم، الأمر الذي يتعارض أصلًا مع كرههم للاختلاط مع العالم الخارجي، وإن كان قد قلَّ كثيرًا.

تقارير أخرى تشير إلى أن الكورواي قد هجروا أكواخهم

العالية منذ مدة واتجهوا إلى قرى ثرية للعيش بها، ويرجعون إلى أكواخهم العالية عند وصول الأفواج السياحية، أو تصوير الأفلام الوثائقية، وهذا ما تستحسنه الشركات السياحية والمحطات الإذاعية الكبرى، بل وتساعدهم في رسم ديكورات أكثر تشويقًا، هذا الأمر متشابك وشائك، وبه العديد من النظريات، لكن الأكيد أن الكورواي من آكلي

لحوم البشر، والأكيد أيضًا أنهم قبيلة بدائية، وكل المعلومات التي نعرفها عنهم من سكن الأكواخ العالية .. وهكذا وهكذا صحيح، لكن هل هم مستمرون في ذلك إلى الآن؟ لا أحد يعلم بشكل كامل ودقيق.

تسو: يا إلهي، لقد كنت داخل عالم مجنون!

ثم صمت برهة واستطرد قائلًا:

اسمح لي، ماذا بشان العجوز والمهندس؟

ألدو: المهندس لا نملك معلومات كافية عنه، آخر مَن تواصل معه كان موظفك الذي أخبرتني لتوّك بوفاته، الاحتمالات كثيرة، من الممكن أنه قد غرق، وارد أنه قد ذهب لغابات الكورواي، وضل طريقه، أو مات جوعًا، أو حتى قتلوه، أو أنه حي إلى الآن! لا أحد يعلم، أما بالنسبة للعجوز فلدينا معلومات كافية بما ذكرته لنا، هو مواطن إندونيسي

مخلص، قد ظلمته توقعاتك في البداية، وأنقذ حياتك بالنهاية، لذا سنتجه إلى هناك من أجله، ونأمل ألا يسبقنا الكورواي بإيذائه.

أووه أخيرًا استيقظت يا صديقي، لا تفزع نحن في كوكوريا الرائعة، اممم أشعر أن روحك لم تكن تناسب جسد تسو، لكن على أي حال الآن أنت هنا، معي، في كوكبنا السيار، كوكوريا..

لم تنظر إلى هكذا؟ لا، أرجوك لا تتهمني، لم أتركك لمصيرك، تذكر ما قلته لك داخل هذه الغرفة، لن أتركك تضيع، وهذا ما فعلته بالضبط، نعم نعم، كما تظن تمامًا، لقد كنت أنا العجوز أجوس أكبر.

لا تقلق بشأني، كوكوريا تمدني بالكثير من الأرواح، هذه مهنتي، أما أنت، روحك واحدة يا قارئي العزيز، وحاولت التكيف مع تسو وين باجتهاد، أنا فخور بك حقًّا.

نسيت أن أخبرك، تستطيع كوكوريا أيضًا تجديد روحك، هيا، التقط النرد وكرر ما فعلناه بالمرة الأولى.

بعد لحظات قليلة، تحولت نافذة كوكوريا إلى شاشتها، على الشاشة يظهر عَلَم نصفه أصفر ونصفه أزرق، تتبدل الصورة لتظهر صورة امرأة تتحدث عنها ملامح وجهها، شديدة

الصلابة، داهية لا يستهان بها، على رأسها تاج وبيدها صليب..

نعم، هذا العلم لأوكرانيا، وإلى هناك سنطير يا صديقي، أنت تعلم القواعد، سأذهب أولًا وستلحق بي، وكالعادة، لن أضيعك.

جميع المعلومات التاريخية الواردة عن الكورواي حقيقية شائعة عنهم، اختفاء المهندس الصيني حقيقي، وكذلك هويته، لكن مصيره مجهول، التقارير الصحفية التي ربطت بين موته والكورواي وفيروس كورونا هي الأخرى تقارير شائعة على مواقع الإنترنت، لكن تم التأكد من عدم صحتها.

الفصل الثاني
الداهية

المكان: أوكرانيا.

الزمان: منتصف القرن العاشر الميلادي (945 م).

أنت: ديميتري كوتشر.

(شاب نحيل متوسط الطول، له شعر أسود داكن ولحية خفيفة)

***

إنه إيغور، إنه إيغور، إيغور هنا، إنه إيغور..

كانت هذه الكلمات التي استيقظ على إثرها ديميتري كوتشر مفزوعًا من نومه، تقريبًا جميع سكان كورستين يركضون قاصدين نقطة ما، كانت مدينة كورستين بمثابة عاصمة قبيلة الدريفليانز، وهي قبيلة تابعة للسلافيون الأوائل، وعاش أفرادها في عدة أقاليم مثل بوليسيا وغرب نهر الدنيبر، أما هذا الاسم الذي يردده الناس وهم يركضون، إيغور، فهو اسم أمير كييف، عاصمة دولة روس الكييفية، والتي ارتبطت بداية تأسيسها بإمارة «كييفسكايا روس» التي كانت تقطنها الأقوام السلافية، كان روريك هو مؤسس

أول سلالة حاكمة للروس، وعند وفاته، كان نجله إيغور لا يزال صغير السن، ولا يمكنه تولي الحكم بعد والده، فبذلك انتقل الحكم لأحد أقرباء روريك، والذي كان يدعى: أوليغ، مكث أوليغ بعد ذلك في إمارة نوفغورود لمدة 3 سنوات، ثم قاد فريق من عسكره إلى الجنوب مرورًا بنهري فولخوف والدنيبر، حيث انتصر على القبائل التي قابلها وأخضعها لحكمه، وفي النهاية استولى على مدينة كييف، بعد ذلك قام أوليغ بنقل مقر الحكم من نوفغورد إلى كييف، وبذلك أصبحت كييف هي العاصمة الجديدة، كان ذلك الحدث تقريبًا في عام 882 م، ومن بين القبائل التي قهرها الأمير أوليغ وأخضعها لتبعيته، كانت قبيلة الدريفليانز، التي كانت قبل ذلك لها نبلاؤها وحكامها الخاصون.

مات أوليغ في العام 912 بعد الميلاد، وتتضارب الآراء بخصوص موته، فالبعض يشير إلى وفاته داخل العاصمة كييف، والبعض الآخر يروي أنه تُوفِّي خارج البلاد، كما أن هناك أسطورة شائعة تروي قصة موته، وتنص على أن أوليغ كان قد قتل حصانه بناء على توصية من أحد الكهنة الذي كان يتنبأ له بمستقبله، بعد ذلك ندم أوليغ ندمًا شديدًا لقتله حصانه المسكين، وفي ليلة من الليالي اتجه إلى قبر حصانه، وهناك لقى حتفه نتيجة للدغة من أفعى كانت قد خرجت من جمجمة الحصان، وبعد ذلك أطلق عليه شعبه لقب أوليغ

العراف، كلها أقوال متضاربة، لكن الأكيد أن بعد وفاة أوليغ تولى الأمير إيغور ابن روريك الحكم، في العام نفسه، 912 بعد الميلاد.

في بدايات حكمه اضطر الأمير إيغور إلى إخضاع القبائل السلافية بمختلف ألوانها، والتي كانت قد ثارت منتفضة بعد وفاة قاهرها الأول الأمير أوليغ، وهو ما نجح فيه إيغور.

وفي العام 941 ميلاديًا هاجم الأمير إيغور بلاد الروم للمرة الأولى، واجتاح الأقاليم البيزنطية حتى مضيق البوسفور، وبذلك اقتربت مراكبه من القسطنطينية، لكنها لم تتحمل النيران السائلة البيزنطية واحترقت غالبيتها، بعد هذه الحملة التي باءت بالفشل، كرر إيغور فعلته وهاجم بيزنطة بدعم من قبيلة الرحل البيشينيغ -التي أقام إيغور العلاقات معها مسبقًا.

لكن في هذه المرة استقبله سفراء القسطنطينية في الضفة الغربية لنهر الدانوب، وأقنعوه بقبول إتاوة مجزية، ومن ثَم عاد مجددًا إلى كييف.

توسعت ممتلكات الدولة في عهد إيغور بشكل ملحوظ، وشملت العديد من الأقاليم، كما شملت أراضي شمال القوقاز، وشمال شبه جزيرة القرم جنوبًا ونهر فولخوف شمالًا.

بدافع غريب لا يعلمه، وجد ديميتري كوتشر نفسه يركض وسط جموع الناس متجهًا معهم إلى وجهتهم التي لا يعرفها إلى الآن، وهم لا يتوقفون عن الترديد، إنه إيغور إنه إيغور، حتى إنه وجد لسانه يتحرك تلقائيًا معهم: إيغور هنا إيغور هنا!!

في الأيام القليلة الماضية شاعت في مدينة كورستين الأخبار التي تفيد بأن ثمة مشكلة قائمة بين الأمير إيغور وبين قادة الدريفليانز، وكباقي سكان المدينة، سمع ديميتري هذه الأخبار التي كان بعضها يُعزي السبب إلى أن الأمير إيغور قد طالب الدريفليانز بزيادة قيمة الإتاوة التي يدفعونها سنويًا، وهو ما لم يرق لقادة القبيلة ورفضوه جملة وتفصيلًا، والبعض الآخر يشير إلى أن قادة القبيلة كانوا قد رفضوا دفع الإتاوة من الأساس، على أي حال، فإن الأمير إيغور هنا، وبالتأكيد هدفه هو تحصيل الإتاوة التي يريدها.

بعد بعض الركض بدأ الناس يتوقفون وعلامات الذهول مرسومة على وجوههم، وما لبث ديميتري أن وصل إلى مكان يتيح له الرؤية بوضوح، حتى ذهل هو الآخر وانعقد لسانه!

البعض من عسكر الأمير ساقطين على الأرض ملطخة أجسامهم بالدماء، والبعض الآخر أسرى غير معلوم مصيرهم،

أما المشهد الأشد غرابة، فهو سير الأمير المهيب إيغور بين قادة الدريفليانز كالأسير، بل هو أسير بالفعل!

رباه! ماذا حدث!!

يبدو أن الدريفليانز قد بلغ غضبهم أقصاه وتفاقم حنقهم بعدما قرر الأمير إيغور زيادة الإتاوة، فانقلبوا عليه وباغتوا حملته العسكرية وقهروها، ومن ثَم أسروه.

لكن يا ترى ما مئال الأمور ومصير الأمير؟! كان السكان قد توقفوا تمامًا عن التهليل والصياح، ربما انعقدت ألسنتهم كما انعقد لسان ديميتري الذي كان واثقًا من أن صمتهم لا علاقة له بالشفقة على حال الأمير أو ما شابه، هم بالتأكيد يكرهونه، وينبغي على ديميتري ذي الأعوام الثلاثة والعشرين أن يكرهه مثلهم بصفته فرد من أفراد القبيلة، لكن الغريب أن قلبه لم يكن فرحًا في الأمير، ولم يكن حزينًا عليه في نفس الوقت، كان يخرج نفسه دائمًا من هذه الدائرة السياسية التي يمقتها، بل إنه كان يمقت أغلب عادات قبيلته وأسلوب عيشها وقادتها، لكنه لم يكن ليصرح بمثل هذا الشيء طبعًا لا لوالديه ولا لأصدقائه..

بعد وقت قصير، رأى ديميتري بعض رجال القبيلة يقومون بشيء ليس له تفسير، كان أشد رجال القبيلة قوة قد أحنوا قمتي شجرتين وغابوا متشبثين بهما حتى لا تستقيما مرة

أخرى، لكن ماذا بعد؟

ما بعد لم يكن ليخطر على بال إنسان، تقدم بعض الرجال الأخرين بالأمير الأسير، نحو قمتي الشجرتين المحنيتين، يا إلهي!! ماذا يفعلون؟!

لقد ربط الدريفليانز الأمير إيغور بالقمتين، ساقاه بقمة شجرة، ويداه بقمة شجرة، ومن ثم ترك الرجال الأقوياء القمتين فاستقامت الشجرتان في الحال، وانشطر جسد الأمير الموثوق إيغور إلى نصفين!!

أي ميتة هذه!! وأي كره دفين في قلوب الدريفليانز دفعهم لإنهاء حياة الأمير بهذه القسوة البالغة!

بعد ذلك، بدلًا من أن يبدأ الناس في النواح جراء هذا المشهد البشع، بدأت الاحتفالات!! تخلَّص الدريفليانز من الأمير إيغور، يا لها من سعادة عارمة تعم المدينة، ويا له من ألم اعتصر به قلب ديميتري لكونه فردًا من هؤلاء، ترك الشاب هذه الاحتفالات المقيتة وعاد إلى بيته، وهو يلعن الحروب والنزاعات وسفك الدماء.

في المساء، دخل والد ديميتري منزله وهو في غاية السعادة، تهلَّل وجه زوجته لما رأته سعيدًا هكذا، وأقبل ديميتري وأخته ذات التسعة أعوام يتملكهم الشغف لمعرفة

سر هذا الحبور، توجَّه الأب إلى ابنه مباشرة وهو يبتسم في وجهه ابتسامة عريضة، وبعد دقيقة، أخبره بما أحبطه، كان والده يزف إليه نبأ اختياره من قبل قادة وأمراء الدريفليانز؛ ليكون من ضمن الرسل المبعوثين إلى كييف برسالة إلى زوجة الأمير الراحل، وبينما يرى الوالد هذا الاختيار شرفًا كبيرًا لولده، وقع النبأ على ديميتري ووالدته كوقع الصاعقة، أبدت الأم قلقها على ولدها الوحيد من الذهاب في هذه الرحلة بالقوارب، والتي قد تستغرق ساعات عديدة أو أيام، كما أنها تخشى تلك الأمور السياسية ونتائجها، وهو نفس رأي ديميتري، لكنه بالتأكيد لم يستطع التعبير عنه، بعد اعتراض الأم اختفت الابتسامة البلهاء المرسومة على وجه زوجها، وطمأنها بأن تلك الرحلة لا تحوي أي نوع من أنواع الخطر، كما أن اختيار نجلها هو باب من أبواب الحظ وفتح له على مصراعيه، فإن كان لبقًا كما ظنوا به وأجاد تأدية مهمته، سيصبح اسمه قريبًا من الأمراء والقادة، ويا لحظه من اقترب منهم! وعلى كل حال، لا يمكننا الاعتراض حتى، هو أمر واجب التنفيذ، ثم توجه الوالد إلى ولده وقال له: صدقني يا بني، هذا الأمر سيدر عليك بالنفع.

ثم أمره بأن يتجهز في وقت قصير ليأخذه إلى مقر القادة، وهو ما تم بسرعة كبيرة، شعر ديميتري وكأن الأحداث مرت كرياح شديدة حملته كريشة هزيلة لا تملك من أمرها أي

شيء، هناك في مقر القادة، ودَّع الوالد ولده وحثَّه على أن يبلي بلاء حسنًا..

وبعد ساعة أخرى، كان ديميتري قد أخذ الثياب الرسمية المخصصة له، وانتقل لينام في المكان المُعد لذلك، على أن ينطلق مع رفاقه في الصباح برسالة إلى زوجة الأمير الراحل إيغور، كان الدريفليانز قد رأوا أنه بعد موت الأمير، سينتقل الحكم إلى نجله بصفته وريثًا شرعيًّا، لكن نجله سفياتوسلاف يبلغ من العمر 3 سنوات، وبذلك سينتقل الحكم إلى أمه حتى يكبر صغيرها ويأخذ العرش، زوجة الأمير إيغور، الأميرة أولغا (أو أولجا)، ولابد أنها أرملة ستنكسر لسماع خبر وفاة زوجها، فبالتالي هذه الأوقات مناسبة تمامًا لفرض الدريفليانز سيطرتهم على الدولة، ورأوا أن ذلك سيأتي بزواج الأميرة أولغا -التي لا حيلة بيدها- من أمير الدريفليان، الأمير مال.

وبذلك كان مضمون الرسالة التي سينقلها ديميتري مع رفاقه، هو عرض زواج، والذي بالتأكيد ستوافق عليه الأميرة المسكينة، يا لهم من سفلة، قتلوا زوجها وسيستغلون ضعفها للزواج منها!! لم يستطع ديميتري النوم في هذه الليلة من شدة غضبه على هذه القبيلة معدومة المشاعر.

بعد رحلة سارت بيسر ولم تعترضها العواقب، وصلت

القوارب إلى مرساها، قضى ديميتري أغلب الوقت في النوم، لم يكن يرغب في التحدث مع أي فرد، ولم يبادر أي من رفاقه أيضًا، وهذا ما رأى فيه سلامته، فإن تحدث فقد يزل لسانه ويتفوه بما يوحي بكرهه للدريفليانز وسياستهم وطريقة عيشهم، بل وكرهه لهذه المهمة جملة وتفصيلًا، من البداية لم يكن يريد ذلك، وبعدما علم فحوى الرسالة المنوط هو بإيصالها مع البقية، تفاقم غضبه وتأجج شعوره ألمًا، طبق ديميتري المثل القائل أن السكوت من ذهب بحذافيره.

رسل الدريفليانز المختارون بعناية فائقة تقدموا في طريقهم إلى قصر أولجا وسط نظرات الكره والغضب التي حاوطتهم من كل الجهات، بالتأكيد وصلت الأخبار المريعة إلى العاصمة كييف، فكر ديميتري إن كانت هذه نظرات الناس ومشاعرهم، ترى كيف سيكون شعور الأميرة؟ وبمَ ستشعر بعدما تسمع رسالتنا الفجة؟! نسأل الرب السلامة.

الآراء المتداولة بخصوص الأصول التي انحدرت منها الأميرة أولجا مختلفة، وكذلك معلومات تاريخ ميلادها، فبعض المصادر البلغارية تشير إلى أن الأمير إيغور التقى بزوجته في مدينة بليسكوف البلغارية، والبعض الآخر يرجع مكان التقائهم إلى مدينة بسكوف الواقعة شمال غرب روسيا، وفي الوقت ذاته، فإن اسم الأميرة يشير إلى أنها تنحدر من

أصول إسكندنافية، على أية حال، هي الآن جالسة داخل قصرها على كرسي الأمير الراحل، تتأهب للقاء رسل القبيلة التي شطرت جسد زوجها إلى نصفين ويتَّمت نجلها، وبالفعل، فُتح الباب بإذنها وبدأ رسل الدريفليانز في التدفق إلى داخل ساحتها، أخذ كل منهم موقعه، وما أن أشارت الأميرة لهم حتى بدأوا في تلاوة رسالتهم، كل حسب دوره، ومن بينهم ديميتري طبعًا، الذي كان يقرأ جزءه الخاص ببعض الاضطراب الذي حاول جاهدًا إخفاءه، كان يتوق لمعرفة رد فعل الأميرة على تلك البجاحة وسوء الأدب.

بعدما انتهوا جميعًا من القراءة، صمتت الأميرة لبعض الوقت، وكأنها تستشير عقلها، في نفس اللحظات، قرأ ديميتري مشاعرها من ملامح وجهها، لابد أنها تكاد تنفجر غضبًا مما سمعته لتوها، لكن بعد قليل تأكد ديميتري من فشله الذريع في استنباط المشاعر، على عكس توقعات ديميتري، لكن كما توقع قادة الدريفليانز، أجابت الأميرة أولجا على رسائلهم بهدوء وبشيء من الإيجاب، حيث طلبت منهم مهلة للتفكير مُبدية تقديرها لطلب الزواج الذي أسرها، وليس ذلك فحسب، بل أخبرتهم الأميرة أن أغلب الناس هنا في كييف غاضبين مما حدث للأمير إيغور، أما بالنسبة لها فستغض الطرف عمَّا مضى وتنظر إلى صالح البلاد ونجلها سفياتوسلاف، لكنها في نفس الوقت لا تستطيع مواصلة

العلاقات مع الدريفليانز بدون تمهيد لشعبها هنا، فلذلك طلبت منهم أن يعودوا للمبيت في خيامهم خارج المدينة، وعندما يحل الصباح لا يرحلون، بل ينزلون إلى قواربهم وينتظرون مجيء رجال أولجا، الذين سيحملون القوارب وهم بداخلها للطواف بها داخل المدينة في إشارة واضحة للشعب بتقدير الأميرة للدريفليانز وتبجيلها لهم.

انصرف ديميتري مع رفاقه وهو على وشك أن يفقد عقله، بهذه البساطة!

من الطبيعي أن أي امرأة تسمع بما جرى لزوجها سينخلع قلبها حزنًا عليه، أم ديميتري مثلًا إن فعل الدريفليانز مع جروها الصغير ما فعلوه مع الأمير إيغور ستلعنهم إلى يوم الدين، بل إن ديميتري الذي لا صلة له بالأمير حزن على مصيره واستنكر طريقة قتله! لابدَّ أن أولجا امرأة لا قلب لديها، أو من النساء اللاتي يُقنعن الأمراء بالحب والولاء فقط لنيل السلطة والترف والحياة الفارهة، وقد تكون أيضًا امرأة مسكينة تكظم غيظها اضطرارًا، للمحافظة على إرث نجلها، فبعد موت الأمير إيغور انكسر العمود الفقري للدولة، وبذلك فإن الدريفليانز -وهي القبيلة ذات الأعداد الوفيرة- إن ثاروا على أولجا فلا تضمن قدرتها على مواجهتهم وردعهم، هم تخطوا كل الحدود عندما نكلوا بإيغور بهذه الطريقة، ولا أحد

يضمن السيطرة عليها، فقد يكون الزواج من أميرهم مال -أو على الأقل إقامة علاقات وطيدة معهم بطريقة أو بأخرى- هو الحل الوحيد أمام أولجا للحفاظ على ما تحكمه، ولذلك لجأت إليه مضطرة، سحقًا، سواء وافقت على هذه الزيجة أو رفضتها بلباقة وأعادت العلاقات مع الدريفليانز، فإن ذلك سيدمي قلب إيغور إن علم به في الحياة الأخرى.

عاد الرسل إلى خيامهم وتبعهم رجال أولجا فورًا بألوان مختلفة من اللحوم والخمور، هنا سيقضون وقتهم إلى الصباح، حيث تنتظرهم احتفالية متواضعة تنظمها لهم الأميرة لإرسال رسالة هامة إلى شعبها، مفادها أن الدريفليانز مُرحب بهم في العاصمة كييف دائمًا، في أي وقت وأي مناسبة.

فكرة قضاء ما تبقى من اليوم في الخيام مع باقي الرسل كانت تؤرق ديميتري كثيرًا، قد يضطرونه إلى الثرثرة معهم، وهو ما سيكرهه، فكَّر في حيلة تمكنه من التجول داخل المدينة، أو حتى خارجها إلى جوار الخيام دون أن يتمكن أي من باقي الرسل مرافقته، لكنه لم يجد ما يبتغيه، فقرر البقاء معهم متحينًا الفرصة، دون أن يثير استغرابهم.

بعد ساعتين تقريبًا، كانوا قد انتهوا من التهام الطعام، خرج ديميتري من الخيمة وجلس مستندًا بظهره على أحد

الصناديق الخشبية القديمة، وأخذ يتذكر قلق والدته من هذه الرحلة وخوفه هو الآخر، ثم نظر إلى السماء شاكرًا مرورها على خير وسلام، بل إنهم في انتظار احتفال لطيف بالغد.

وبينما هو مستغرق في أفكاره، لاحت أمامه فرصة، أو نصف فرصة ليتجول داخل المدينة ولو لوقت قصير، كان عدد الرجال الذين ينقلون بقايا الطعام من الخيم إلى داخل المدينة أقل من عدد هؤلاء الذين نقلوا الطعام في الاتجاه المعاكس، كانت أولجا تريد أغلب رجالها بالداخل، البعض يسير شؤون الدولة الروتينية، والبعض الآخر يجهز لاحتفال الغد، والجزء الثالث يتنقل بين الناس في طرقاتهم العامة لتمهيد احتفال الغد وعودة العلاقات مع الدريفليانز؛ لذلك كان عدد قليل ينقل بقايا الطعام وأغلبهم من الكبار سنًّا، بين هؤلاء كان هنالك رجل أصلع الرأس نحيل الجسد، يبدو فوق الستين من عمره تقريبًا، كثيرًا ما يتعثر بما يقوم بنقله من الخيام إلى شيء أشبه بالعربات الخشبية على أبواب المدينة، قرر ديميتري المحاولة في هذه الفرصة الضعيفة، واتجه صوب هذا المسن يعرض عليه المساعدة، نظر الرجل إلى الشاب النحيل قليلًا وكأنه يستغرب تهذيبه، ثم لم يجبه سوى بإشارة من رأسه مفادها النفي، ألحَّ ديميتري في عرضه وانصاع الرجل أخيرًا لطلبه، حيث أشار له بحمل منضدتين إلى يمينه، وأن يتبعه بهما نحو أبواب المدينة..

فورًا حمل ديميتري إحداهما ولحق بهذا الرجل جاف الملامح، لا تفهم من وجهه إن كان مسرورًا أم غاضبًا، على كلٍّ فإن ديميتري تحقق من فشله في قراءة الملامح حينما كان في القصر..

أُدعى ديميتري كوتشر، هكذا قال ديميتري محاولًا بدء محادثة، لكن الرجل لم يجبه سوى بإماءة من رأسه..

تنحنح ديميتري وحاول التلطف قائلًا: لا تقلق سأساعدك لإنجاز هذا العمل في وقت قصير.

التفت إليه الرجل ورماه بنظرة جافة، ثم عاود النظر إلى الأمام دون إجابة مرة أخرى..

ديميتري: لم تنظر إلى هكذا؟!

أخيرًا نطق الرجل: مندهش.

- من ماذا؟

= من أن بعض الأوغاد يعرضون المساعدة أحيانًا.

لم يتفاجأ ديميتري كثيرًا من توبيخ الرجل وواصل حديثه: ولم تراني وغدًا؟

كانا قد وصلا إلى العربة، فأخذ الرجل المنضدة من يد

ديميتري وألقى بها في العربة قبل أن يجبه: لأن قبيلتك كلها أوغاد.

في الحال ودون تفكير رد ديميتري قائلًا: أنا أكرههم بمقدار كرهك لهم، أو يزيد.

التفت الرجل -الذي كان في طريق عودته إلى الخيام- بكامل جسده، ونظر للشاب الغريب الذي يلحق به وسأله: ماذا قلت؟

علم ديميتري أنه قد تورط في محادثة لا مفر من البوح بمشاعره الحقيقية بها، لقد أخذ الخطوة الأولى دون قصد وصرح بكرهه لقبيلته، ولا يمكنه التراجع بعد هذه الخطوة، فقد يظن الرجل أنه يدبّر له مكيده ما، أو يتشكك في أمره، أو حتى يفشي لرفاقه من الرسل بما قاله صديقهم لتوه.

لذا فإن ديميتري فكّر سريعًا وعزم على مواصلة الحديث بصراحة بالغة، ومحاولة إقناع الرجل بصدق ما قاله.

أثناء الذهاب والمجيء بين الخيام والعربات أدلى ديميتري بكل ما كان يملأ دلوه إلى الرجل، عن كرهه لقبيلته وطباعها وقادتها، عن رفضه لهذه الرحلة أصلًا واضطراره في المجيء بهذه الرسالة التي يراها في غاية الفظاظة، ثم تردد قليلًا قبل أن يتطرق للحديث عن رفضه التام وألمه الشديد من

الطريقة التي مات بها الأمير إيغور، كان الرجل يستمع إلى ما قاله ديميتري دون أن يقاطعه، لم يكن يبادله الحديث لكن في نفس الوقت لم يكن يردعه عنه، وهو ما شجع ديميتري على المواصلة وأخبره أنه عرض عليه المساعدة للابتعاد عن رفاقه الذين لا يحبهم ولا يطيق الحديث معهم، كما أخبره برغبته في قضاء الوقت المتبقي على نومه بالتجول داخل المدينة.

كانا قد انتهيا من نقل كل المتاع إلى العربة، فكَّر الرجل لبرهة، ثم قام بتفتيش ديميتري تفتيشًا ذاتيًّا دقيقًا، وأخيرًا تحدَّث مرة أخرى قائلًا: أُدعى تاراس، موافق، سأصطحبك في جولة قصيرة داخل مدينتنا.

ابتهج الشاب وتهلل وجهه لما قاله تاراس وشكره كثيرًا على تلبية رغبته، أشار تاراس لقائد العربة بالانطلاق، ثم بدأ في التجول مع الشاب داخل المدينة وهو صامت كعادته، بينما لم يتوقف ديميتري عن الثرثرة، تارة يعلق على ما يقابلهم من أبنية بطراز فريد وطرقات مختلفة الاتساع عن تلك التي بكورستين، وتارة يواصل الحديث عن كرهه للدريفليانز وللسياسات المعقدة والحروب، وفي الأخير أحس ديميتري أن أغلب مَن قابلوه من الناس رمقوه بنظرات استهجان، وسأل تاراس عن ذلك، بلا تردد أجاب: تتزين بزي

رسل الدريفليانز، ماذا تنتظر منهم؟

- لكن الأميرة وعدتنا باحتفال بالغد، كيف سيقام احتفال وسط هذا الكره؟

نظر له تاراس باستهزاء قبل أن يقول: يبدو أنك تكره السياسات فعلًا ولا تتقنها، ولا تعرف حتى الحد الأدنى من قوانينها، الناس هنا رهن إشارة الأميرة، تركوا عقولهم واستبدلوها بآراء القادة، مات أميرهم على يد الدريفليانز، سيكرهون الدريفليانز، انتقلت القيادة إلى أميرتهم، وسترحب بالدريفليانز وسيرحبون بالدريفليانز، القادة يفعلون ما هو بصالح عامة الناس، كذلك يؤمنون.

أحس ديميتري بضآلة خبرته إلى جانب هذا المسن ولم يستطع الرد، فحرَّك دفة الحديث إلى اتجاه آخر سائلًا: لم تقوم بالعمل حتى ذلك السن؟ أليس لديك أبناء ليعملوا حتى تستريح أنت؟

- لدي فتاة متزوجة، وفتى يعمل لصالح الأميرة، هو من خواص رجالها بالمناسبة، شاب يافع وبارع، لكنني لا أطيق البقاء بوجه زوجتي طيلة اليوم، تأثير العمل أخف وطأة على عقلي، وعواقبه أحمد على صحتي.

أخفى ديميتري ضحكته، وواصل التقدم مع تاراس

مستمتعًا بجولتهما، ورغم أن شيئًا ما بداخله كان قلقًا من وجه تاراس الجاف الذي لا يبدي أي شيء، إلا أنه تجاهل هذا الشعور سريعًا معزيًا إياه إلى كونه داخل مدينة غريبة عليه للمرة الأولى، ومتمنيًا أن هذا الرجل الذي يسير إلى جانبه قد آمن بصدق ما قاله، وأنه لا يتشكك في نواياه.

قبل نهاية الجولة سأل ديميتري: أين باقي رجال الأميرة؟

نظر إليه تاراس بريبة مما دفع ديميتري للتصحيح سريعًا: أقصد أنك قمت بالكثير من العمل بمفردك، لماذا لا يساعدكم المزيد؟

أجاب الرجل: هم أيضًا لديهم أدوارهم، وهم منهمكون في تأديتها الآن..

وحينما كان ديميتري يوبخ نفسه لاستخدامه أغبى الصيغ الممكنة لسؤاله، والتي أثارت الريبة في نفس تاراس، توقف الأخير أمام منزله، وعرض على ديميتري المبيت معه طالما أنه يكره رفاقه وخيامهم، سُرَّ الشاب كثيرًا لهذا العرض، ووافق عليه على الفور، لم يسبق له المبيت بخيمة في الخلاء هكذا، ولم يظن أن رفاقه قد يشعرون بغيابه أصلًا، وفي خلال لحظات كان تاراس يقوده إلى غرفة نجله، وهي الغرفة التي سيقضي فيها ليلته، دخل ديميتري الغرفة التي استحسنها، وقبل أن يستدير لشكر تاراس على كرمه البالغ،

شعر بشيء حاد يرتطم برأسه، سائل دافئ يتدفق على عنقه، وما تلى ذلك كان مشهدًا ضبابيًّا، فقد الوعي تمامًا.

رباه، ما هذا الألم، أين أنا، أااه رأسي ستنفجر..

هكذا كان يهذي ديميتري قبل أن يجمع شتات عقله ويتذكر أين هو، هو بنفس الغرفة التي شاهدها لثوان معدودات قبل أن يتلقى ضربة حادة على رأسه، الدماء لا زالت تترك أثرًا على الأرض وعلى ملابسه، مكبل من يديه ورجليه، وضمادة بالية موضوعة على الجرح الذي على رأسه، علم ديميتري أن الصوت الخفي بداخله قد صدق، لم يثق به تاراس وكبَّله، كل ذلك بسبب سؤاله الأخير، والآن، لا يعلم الشاب مصيره، وويل له من هذا المصير..

خاف الشاب من الصياح طلبًا للنجدة، وزاد خوفه عندما ظل المنزل صامتًا لفترة، لا يوجد أي صوت بالخارج كأنه في مكان مهجور، لكنه متأكد تمامًا أن هذه الغرفة هي التي دخلها مع تاراس بعدما حيَّا زوجته، علم الفتى من أشعة الشمس التي تكسو الغرفة أنه في وقت الصباح، ولابد أن رفاقه ينعمون الآن بحفلة جميلة، وهو هنا مكبل وملطخ بالدماء، أنَّب ديميتري نفسه على حماقته وجزعه، فلو صبر على رفقة الرسل لساعات قليلة، لكان معهم الآن محمولًا على الأعناق..

وبينما هو منهمك في جلد ذاته، دخل عليه تاراس، شُلَّ لسان ديميتري ولم ينطق، وأخذ يترقب مصيره المحتوم، اقترب منه تاراس بوعاء ممتلئ بالماء ثم حنى رقبته ونزع الضمادة وسكب الماء على رأسه ماسحًا آثار الدم مِن على الجرح الذي قد جفَّ نوعًا ما، بعد ذلك نظر تاراس إلى عيني الشاب وقال له: لم يكن لدي طريقة أخرى..

انفجر ديميتري: طريقة أخرى لماذا؟!

لم يجبه تاراس، بل شرع في فك قيده ثم خرج للحظات وعاد ليضع أمامه زيًّا يشبه زيه، وأمره بارتدائه بدلًا من ملابسه، حاول ديميتري الاحتجاج والامتناع عن تنفيذ الأمر حتى يفهم ما يمر به لكن تاراس ردعه على الفور وهدَّده بالقتل إن لم ينفذ ما يؤمر به حالًا.

تعاظم رعب الفتى وبدل ملابسه في الحال مرتديًا زي رجال أولجا، وكأنه واحد منهم، بعد ذلك ألقى تاراس على سمعه كلمات قليلة العدد عظيمة الوقع حينما قال: سنخرج سويًّا، وستتبعني كظلي، لا ترتجل حتى بتحريك إصبعك، افعل ما تؤمر به وفقط حتى لا يكن مصيرك كمصير إيغور.

لم يستطع ديميتري النطق بالموافقة حتى، فهز رأسه عدة مرات بسرعة موافقًا، كان الرعب باديًا على كل حركاته.

في الدقائق القليلة التالية كان ديميتري يسير إلى جوار تاراس في طرقات مهجورة كليًا، ما كان بالأمس مأهولًا بالناس بات الليلة كالصحراء، ظن الشاب أن ذلك بسبب تجمهر الناس في حفلة التبجيل المقامة لرسل الدريفليانز، والتي حرم نفسه من متعتها، وبعد وقت قليل تأكد أن ظنه كان في محله، آلاف الناس يتجمعون لمشاهدة الحدث الرئيسي، رجال أولجا يحملون القوارب المحملة برسل الدريفليانز ويسيرون بها في وسط الناس، الأهازيج تصم الآذان، والبهجة العارمة تجتاح الرسل، وفي الوقت ذاته كانت الحسرة تأكل أحشاء ديميتري..

شق تاراس ومعه ديميتري صفوف الناس الذين كانوا يفسحون لهم المجال لكونهما من رجال الأميرة، وما إن اقتربا من القوارب قال تاراس لديميتري بحدة: افعل ما سأفعله.

بعد ذلك تقدم تاراس نحو القارب الأخير وأخذ مكان أحد الرجال الذين يحملونه للتخفيف عنه، وكذلك فعل ديميتري مع رجل آخر كان يشارك في حمل نفس القارب.

حدث ديميتري نفسه، رباااه ما هذا؟ كان ينبغي لي أن أكون فوق القارب وليس أسفله، ما هذا العقاب المجنون، لابد أن هذا الرجل المسن قد فقد عقله، أقسم: إنني صارحته بما

أكنّه..

عزم الشاب أمره على التحدث مع تاراس بحدة في أقرب فرصة، فإن كان الموت هو مصيره في كل الأحوال، فلن تزيد محاولة يسيرة من سوء الأمر، سأصرخ في وجهه وأقسم له إنني كنت صادقًا معه، ولم أرد له السوء، ولا أمتلك أصلًا أي نوايا تجاهه، هكذا قال الشاب لنفسه.

بعد فترة من حمل القوارب والطواف بها وسط الناس، انتهى تجمع الناس عند مسافة معينة من قصر الأميرة أولجا، هناك كان يصطف العديد من رجالها الذين يؤمنون مساحة واسعة خالية بين الناس وبين مدخل القصر، بين صفين من رجال الأميرة تقدم حاملو القوارب في اتجاه القصر ليتلقى الرسل الرد من الأميرة، ومن ثم العودة إلى مدينتهم، ومن الواضح أن الرد إيجابي لا محالة.

ترك تاراس وديميتري القارب لرجلين آخرين، وانضما لجزء آخر من رجال الأميرة يقوم بصرف الناس إلى ديارهم، انتهى الاحتفال..

ومع انصراف الناس كانت كل القوارب قد دخلت إلى ساحة القصر استعدادًا لملاقاة الأميرة، وعاد تاراس بدوره في اتجاه القصر مسرعًا، رأى ديميتري أن عليه اغتنام الفرصة والتحدث مع الرجل الآن، تظاهر الشاب أولًا بالتعثر ليتأخر

قليلًا عن باقي الرجال، وبالطبع توقف معه تاراس، وهنا بدأ ديميتري في التحدث، لكن قبل أن يتم كلمته الأولى أصلًا جذبه تاراس من ملابسه بقوة، ثم قال له وهو يجز على أسنانه: تقدم معي دون أي كلمة.

عاد الرعب ليغزو جسد ديميتري النحيف، وبالفعل تقدم مع مرافقه للحاق بباقي الرجال إلى داخل القصر، ومع دخولهما للباحة، أغلق مدخل القصر.

هنا نظر تاراس للشاب وقال له بهدوء: تقدم قليلًا لترى حسن صنيعي تجاهك.

توقع ديميتري أن الصنيع الذي يقصده هو على أفضل الأحوال رمح سيصيب قلبه، وعلى أسوء الأحوال جنديان يأسرانه لغرض ما.

بلع الشاب ريقه وتقدم باهتزاز، ليجد نفسه أمام مشهد لم يكن خياله ليصل إلى تصوره وإن ظل يفكر لألف عام..

هنا، في باحة قصر الأميرة أولجا الذي لا يشغله الآن سوى رجالها، كانت مساحة كبيرة من الأرض محفورة لتكوين أخدود مستطيل الشكل، وفي اللحظة التي رفع فيها ديميتري نظره من الأرض ليرى ما أمامه، كان رجال أولجا قد شرعوا في إلقاء القوارب محملة بالرسل داخل هذا الأخدود،

دقائق معدودات كانت كفيلة لدفع الجميع إلى داخل الحفرة العظمية.

نظر ديميتري حوله بذهول ليجد رجال أولجا -والذي ينبغي أن يكون واحدًا منهم الآن- يتلذذون بصيحات الهلع التي يطلقها الرسل..

على الفور، خرجت الأميرة من شرفتها ونظرت إلى الرسل لتسألهم باستهزاء: هل راق لكم احتفالنا المتواضع؟!

وما كان من الرسل سوى الصراخ والعويل طالبين الرحمة والسماح، البعض يصيح بأنه مجرد رسول برسالة لا ذنب له بشيء، والبعض يكتفي بالصراخ والنحيب، والأغلبية تتلعثم بجمل غير مفهومة من هول الموقف.

نظرت أولجا إلى كل ذلك لدقائق، وكأنها تشفي غليلها وتملأ عينيها مما تراه، ثم أشارت بإشارة ما، بدأ بعدها رجالها في ردم الأخدود العظيم، لقد دفنت أولجا رسل الدريفليانز أحياء.

شاهد ديميتري رفاقه وهم ينازعون تحت التراب كالدجاج المذبوح الذي يتحرك في كل الاتجاهات دون قصد معين، كفأر داخل مصيدة ضيقة لا يعلم أين يذهب، كانت أصواتهم ترتفع في البداية بعامل الرعب، ثم أصبحت تخفت شيئًا

فشيئًا أسفل التراب، حتى تواروا عن الأنظار تمامًا، ورحلوا دون رجعة.

في الحال تقدم تاراس إلى ديميتري متيبس الأطراف، وجذبه من ذراعه، وسار به إلى مكان لا يعلمه الشاب الذي تحرك كامرأة عجوز قضت قرنًا من عمرها، همس تاراس في أذنه: تقدم حتى لا يشك أحد في أمرك وتلقَ نفس المصير.

جاهد ديميتري أطرافه إلى أن وصلا لباحة القصر الخلفية، وهناك أشار تاراس للأول بالجلوس ليستريح.

لم يجلس الشاب، لا يستطيع تحريك مفاصله والجلوس، فطن تاراس حالة المسكين وأراحه برفق إلى الأرض، وبدأ يتحدث معه:

- أعلم أن ما فعلته كان مفاجئًا وصادمًا لك، لكن كما أخبرتك بالصباح، لم أجد طريقة أخرى لحمايتك، لم يكن بإمكاني الإفشاء بما أعرفه، وإن تركتك تعود للقوارب لتحضر الاحتفالية لم تكن لتجلس أمامي الآن، أنت شاب صالح، لمست ذلك في حديثك البارحة، لذلك أردت حمايتك، أعلم أن ما فعلته قد يحتم عليك العيش هنا للأبد، أو على الأقل لفترة ما قد تقصر أو تطول، لا أحد بإمكانه التخمين، لكن أظن أن ذلك كان أفضل من أن تُدفن على قيد الحياة.

كان ديميتري ممددًا على الأرض ويستند بظهره إلى حائط، فيما يجثو تاراس على ركبة واحدة، بعد هذه الكلمات الدافئة من الأخير، مال ديميتري بجبينه ليقبل يد الرجل صاحب الفضل في نجاته، تقديرًا وعرفانًا له.

مرر الرجل يده على شعر ديميتري وطالبه بالوقوف حتى لا يستغرب أحد الرجال من تلك الجلسة الغريبة إن مر بهما، وبعدما وقف الشاب، بدأ في الحديث سائلًا: ألم يلحظوا اختفاء واحد من الرسل؟ هل كانوا يعلمون عددنا منذ البداية؟

= مؤكد أنهم كانوا يعرفون عددكم في بادئ الأمر، لكن منذ أن اتجهوا لحمل القوارب سارت الأمور بسرعة، وأشك إن كان أحد لاحظ غيابك.

ارتاح الفتى قليلًا ثم سأل: والآن ماذا بعد؟

= سنذهب إلى منزلي أولًا، وهناك أخبرك بما سيحدث لاحقًا.

في نفس الغرفة التي كان مكبلًا بها منذ ساعات، جلس ديميتري ليتناول الطعام بعد إلحاح من تاراس الذي قصّ على زوجته قصة الفتى كاملة، وكأي أم تعاطفت المرأة مع الشاب المكلوم، وأعدت له الطعام على الفور.

بدأ تاراس في التحدث مع الفتى أثناء وجبته قائلًا: ستبقى هنا الليلة، وبالغد سأدبر لك مكانًا تؤدِّي به خدمتك وسط الرجال، المعضلة تكمن في المبيت معهم وأنت غريب عليهم، لذلك سأبحث لك عن عمل داخل القصر له سكن منفصل، فبعض المهام تحتم عليك المبيت في مكان تأدية العمل، وليس بمساكن البقية..

تدخلت زوجة تاراس قائلة: المعذرة، لكن أليس من الممكن أن يذهب لذلك العمل من الليلة؟

- قلت أنه سيقضي ليلته هنا، هذا أمر منتهٍ.

=حسنًا، اعذرني يا ولدي، أنا خائفة على بيتي وزوجي.

تفهم ديميتري خوف زوجة تاراس وشكرها مجددًا على المساعدة، ووعدها بأن ينصرف بالغد بمجرد تدبير أحد الأعمال له، وألا يعود إلى هنا مجددًا.

تمنَّت له المرأة ليلة هادئة تليها ليالٍ سالمة، ثم غادرت الغرفة ليسأل الشاب زوجها عما تنويه الأميرة أولجا بعد ذلك..

بدت الحيرة على تاراس قبل أن يجيب: لا أعلم، ولا أحد يعلم سواها، لكن إن سألتني عن ظني، فأنا أرى أنها دفنت الرسل لتبريد جزء من نيران لوعتها على فقدان الأمير إيغور،

لا سيما أنه قُتل بطريقة شنيعة، لكنها بالتأكيد لا تقوى على نزاع الدريفليانز، خصوصًا الآن، وأغلب الظن أنها امرأة حكيمة، لذلك ستواصل العلاقات مع الدريفليانز، وفرص قبولها لعرض الزواج قائمة وبقوة..

اندهش الشاب مما يسمعه وسأل: وكيف ستفسر للدريفليانز ما فعلته برسلهم، كيف ستستمر العلاقات بعد ذلك؟

ابتسم تاراس وأجاب: كما استمرت وطلب زعيم الدريفليانز الزواج من الأميرة بعدما شطروا زوجها إلى نصفين.

لم يفهم الشاب فتابع الرجل مفسرًا: إن أخبرتهم بأنها فعلت ذلك إشباعًا لرغبتها، وأنها توافق على عرض الزواج بعدما أرضت شهوة الانتقام، أظن أن قادتكم سيوافقون على الفور، فلا أظنهم يهتمون لأي منكم.

عارضه ديميتري قائلًا: لا أظن ذلك، لا أختلف معك في تقييم أهمية الرسل بالنسبة للقادة، لكنني أظن أن قادتنا يرون أنفسهم في موضع قوة، ولن يقبلوا بأي إهانة لاسم قبيلتهم؛ لأنهم ببساطة يقتنعون بقدرتهم على الاستيلاء على الحكم، حتى وإن رفضت الأميرة الزواج، لكن الزواج هو أسهل الطرق وأسرعها وأحقنها للدماء والثروات التي تتبدد في الحروب، فإن أراد الدريفليانز السيطرة على أولجا، فلا

يمكن لهم السماح لها بالتقليل من شأنهم بحدث مشين مثل دفن رسلهم.

تاراس: عمومًا، لا أظن أن الرسل سيشكلون عائقًا مطلقًا، لسبب يسير، وهو أن الأميرة طلبت منا إخفاء مصيرهم تمامًا، حتى عن أهل كييف، حتى لا تنقل الأخبار إلى مدينة كورستين.

- وهذا يفسر صرف الناس قبل دفن الرسل، هكذا قال ديميتري.

= بالضبط، قد تنوي الأميرة إخبار الدريفليانز أن جميع الرسل ما زالوا بكييف لغرض ما، أو أنهم غادروا المدينة قاصدين العودة، وهنا سيخرج الأمر من يدها لأيدي قادتكم الذين سيتنبؤون بغرق قواربكم مثلًا، لا أحد يعلم ما تفكّر فيه أولجا للأسف، حتى أقرب رجالها، تصدر الأوامر بالتدريج، وتؤخر الإفشاء بما تنويه لآخر لحظة ممكنة، لم نعاشرها طويلًا طبعًا، لكن هذا ما فعلته عندما أمرت بدفن الرسل، كان الرجال يحفرون حفرة لا يعلمون فيما ستستخدم أصلًا، لكن الشيء الأكيد هو أن مصير الرسل الحقيقي سيتم إخفاؤه عن قادتكم نهائيًا.

تلقى ديميتري ما قاله الرجل، وشرع يفكر فيه ليسود الصمت لفترة قبل أن يقطعه تاراس قائلًا: سأتركك الآن

لتستريح على أن نتحرك في الصباح.

في الحمام الفخم الخاص بقصر الأميرة أولجا، كان تاراس يعرف ديميتري بالرجل الذي سيقوده في العمل، كان يُدعى أندريه، أندريه كان من أقرب أصدقاء تاراس وأخلصهم، تلك الصداقة الوطيدة لم تجعل تاراس يصرح لصديقه بحقيقة الشاب ديميتري، لكنها جعلت أندريه يصدق القصة المزيفة التي أخبرها به صديقه عن أصول ديميتري، كما جعلته يحسن معاملة الشاب أيضًا..

بفطنة ملحوظة تعلم ديميتري واجباته بسرعة فائقة، وأداها ببراعة، بعد ذلك التقى الشاب بتاراس مرة أخرى، والذي جاءه ليرشده إلى مكان نومه ويودعه، كانت الغرفة التي سيبيت بها ديميتري تقع على مقربة من الحمام الفخم، فهذا الحمام لا يتردد عليه سوى الأمراء والنبلاء الذين يلقون بعض الاستجمام داخله، كنوع من الترحيب بهم من قبل القصر، وبالتالي لابد من وجود عمال الحمام على مقربة منه دائمًا لتأدية الخدمة المنشودة.

بعد أن تمنى تاراس للشاب حظًّا سعيدًا، وأخبره بأن يطلب من أندريه استدعاءه إن أراد رؤيته في أي وقت، تعانقا بحرارة وودَّعا بعضهما البعض، وكان آخر ما قاله الشاب: شكرًا لك، شكرًا لكل شيء.

غريبة قواعد الحياة، قد تتورط في كارثة بدافع الحب من ذويك، وقد يسخر لك القدر أسبابًا للنجاة، فقط لكونك طيب القلب!

***

مر يومان، أو ثلاثة، ربما أربعة أو خمسة، لا يعلم ديميتري كم مر من الأيام، لقد فقد إحساسه بالوقت هنا، متنقلًا من جدران الحمام، لجدران الغرفة، لا يكاد يرى أشعة الشمس، لكن هذه الحال لم تزعجه، على الأقل هو على قيد الحياة، يقوم بأعمال معينة، ويعامل معاملة حسنة من قائده، يجد ما يأكله ويشربه وينام مطمئن البال.

وبينما الشاب يؤدي أعماله الروتينية، سمع وطء أقدام يألفها، بالفعل لقد كان تاراس الذي دخل وحيًّا أندريه، ثم توجه صوب ديميتري، اطمأن على حاله، ثم همس له بمعلومات جديدة مفادها أن الأميرة أولجا في اليوم التالي لدفن الرسل بعثت برسالة إلى الأمير مال زعيم الدريفليانز تنص على أنها قبلت عرض الزواج، لكن بعثة الرسل التي أرسلها لا تليق بمقامها كأميرة، ويتعين عليه إرسال وفد آخر من أنبل حكماء وقادة الدريفليانز يليق بقدرها الرفيع لتغادر معهم صوب كورستين، وتتم مراسم الزواج منه.

اندهش ديميتري وهمس هو الآخر: كما توقعت أنت!

ستباشر العلاقات معهم، بل وستقبل عرض الزواج أيضًا!

= بالضبط

- ومتى ستصل هذه البعثة؟

= هم هنا منذ الصباح، تجتمع الأميرة بهم الآن لمناقشة شروط الزواج، وفي صباح الغد ستغادر معهم إلى كورستين.

- وماذا أخبرتهم بشأن الرسل؟

= لا أعلم، لكن سنعلم ليلًا على الأكثر، الأهم الآن إنك مطلوب في خلال نصف ساعة أنت وباقي العاملين بالحمام، ستجتمع بكم الأميرة بعدما تنتهي من اجتماعها بالوفد، في الغالب ستوصيكم بحسن الضيافة لوفد الدريفليانز، تظاهر بأنك لا تعرف شيئًا بخصوص هذا الاستدعاء حتى يستدعيك أندريه.

- حسنًا حسنًا، لكن قد تتعرف الأميرة عليّ!!

= لا تقلق من هذا الشأن، ستكون وسط الكثير من العمال، كما أنني أظن أنها لم تدقق النظر في رسل الدريفليانز، كانت مشغولة بفحوى الرسالة، ما ينبغي أن يقلقك حقًّا هو أن يتعرف عليك أي من رجال الوفد.

- لا أظن ذلك، بالرغم من أن بعض القادة رأوني في ليلة

الرحلة إلى هنا، إلا أنه من الصعب أن يتذكروني، كانت تلك هي المرة الوحيدة التي رأوني بها، وعلى كل حال سأتوخى الحذر وأقلل من اتصالي المباشر بهم قدر استطاعتي.

اطمأن تاراس لما قاله الشاب، ووعده بالمجيء إليه حال معرفته لمعلومات جديدة، ثم غادر.

وبالفعل بعد أقل من نصف ساعة أمر أندريه جميع رجاله باتباعه إلى قاعة الأميرة أولجا.

هناك وقفت الأميرة شامخة، وفي أقل وقت ممكن أخبرتهم بالتعليمات الواضحة تمامًا، هذا الوفد على قدر عالٍ من الأهمية، لذا لن يقوم أي منكم بخدمتهم، سيتم استبدالكم برجال آخرين أكثر خبرة، وبذلك عليكم جميعًا البقاء في غرفكم هذه الليلة، ولا تخرجوا منها البتة إلا بأوامر مباشرة من أندريه، الذي سيُستثنى من هذا الأمر، بعد ذلك أمرت الأميرة الجميع بالانصراف سوى أندريه...

***

قبل موعد نوم ديميتري بقليل، دخل أندريه الغرفة واستدعى واحدًا فقط من رجاله وغادر، وسمعوه يكرر نفس الأمر في الغرفة الأخرى المقابلة لهم، سمعوا أصوات الرجال داخل الحمام تتأهب، يبدو أن الوفد قادم الآن..

عاد ديميتري إلى مرقده، يفكر في حياته الجديدة، في أسرته هناك في كورستين، وفي هذه الأميرة التي قبلت عرض الزواج على عكس توقعه، بعد ذلك انتقل ذهنه لهذه الصورة المحفورة داخل عقله، وهي أيدي الرسل التي تشق التراب المتراكم فوقهم آملين في النجاة، يتذكر كيف تنتصب تلك الأيدي بقوة تستمدها من نزعة البقاء وحب الحياة، وكيف ترتخي استقامتها تدريجيًّا كالزهرة الذابلة، أخرج صوت غلق أبواب الحمام ديميتري من بحور أفكاره، فشكر السماء على هذا الحدث المباغت الذي رحمه من تلك الذكرى اللعينة وسهَّل عليه النوم، كما شكر الأميرة بينه وبين نفسه لإعفائه من خطر التقرب من وفد الدريفليانز، اعتدل في نومته، وشرع في النعاس..

ولكن، أصوات مدوية خرجت من الحمام هبَّ على إثرها كل العمال مذعورين، تكدس الجميع أمام البابين في الغرفتين، ينظرون إلى بعضهم البعض من النافذة والذعر يتملكهم جميعًا، تمنعهم أوامر الأميرة من الخروج، كانت الأصوات مريعة يملؤها الذعر، اتفقت جميعها على الاستنجاد وطلب العون، ماذا يحدث داخل الحمام اللعين؟! تتعالى الأصوات المفزوعة من داخل الحمام، ويتزايد الهلع في نفوس العمال داخل الغرف، إلى أن أتى ما يخلصهم من كل ذلك، صوت أندريه الجهوري يصيح: أمر مباشر لكل العمال،

إلى خارج الغرف، حالًا...

ما لبث أندريه أن أتمَّ جملته حتى انفتحت أبواب الغرف على مصاريعها، وخرج الجميع يركضون تجاه الحمام، لكنهم اصطدموا بأندريه والكثير من الرجال يملؤون نوافذ الحمام كلها، ولابد أنهم يفعلون شيئًا ما، رتب أندريه العمال الآتين من الغرف في صفوف، وأمرهم بالانتظار، لم يتوقف باقي الرجال الذين يقومون بأعمال الحمام لهذه الليلة فقط من الذهاب والمجيء، كالنمل الذي ينقل الطعام إلى مستعمرته، كانت الأصوات الخارجة من الحمام تقل بالتدريج، إلى أن توقفت تمامًا، بعد ذلك بدقائق، أمر أندريه الرجال على النوافذ بالتبديل، هبطوا وصعد غيرهم، تغيرت المعدات التي يحملونها، وبعد بعض الوقت، أمر أندريه بفتح الأبواب، وأصدر أوامره للعمال الخارجين من الغرف باتباع تعليمات الرجال على النوافذ، واختتم: من يقدر منكم على فعل ما سيطلب منه، سيُكافأ، ومن لا يستطيع فليعد إلى غرفته، ولن يعاقب.

ثم غادر أندريه متجهًا إلى قاعة الملكة..

هنا، داخل الحمام، كان الرجال على النوافذ على وشك الانتهاء من إخماد النيران، لقد أشعلت الأميرة أولجا النيران داخل الحمام بعد أن أغلقت جميع أبوابه على وفد

الدريفليانز الذي يحتوي على أنبل وأرقى قادتهم وحكمائهم حتى تفحَّموا جميعًا، بلا استثناء، تلك كانت ضربتها الثانية انتقامًا لقتل زوجها، أما ديميتري ورفاقه، فقد كانت التعليمات لهم بإخلاء الحمام من تلك الجثث المتفحمة، والتي سيتم دفنها بالطبع إلى جانب أسلافهم من الرسل.

يبدو أن الأميرة قد وضعت خطة جهنمية للثأر لزوجها، والآن ها هي قد نفذتها، ومن المؤكد أن رسالتها القادمة للدريفليانز ستكون بمثابة تصريح لما فعلته بالرسل وبالوفد النبيل، فلابد أن القبيلة ستفقد الكثير من قوتها بموت أرفع قادتها، لكن هل ستصمد الأميرة أمام ردّ فعل الدريفليانز؟؟

- منذ متى تسير الأحداث كما نتوقع؟!

قال تاراس ذلك بعد بضعة أيام للشاب المذهول الماثل أمامه، كاد ديميتري أن يفقد عقله بعدما سمع أحدث المعلومات من تاراس!!

لقد أخبره الرجل أن خمسة آلاف جندي من الدريفليانز قد وصلوا من كورستين إلى كييف صباح اليوم، ليس بغرض الانتقام مما حدث للوفد الذي بات رمادًا، بل لغرض آخر، لقد كررت الأميرة أولجا كرتها، أخفت عن الدريفليانز مصير الوفد النبيل، كما أخفت مصير رسلهم، وبعثت برسالة أخرى إلى الأمير مال تشكره على حسن انتقاء الوفد الذي يشرفها حتى

اللحظة داخل كييف، وأنها اتفقت معهم على جميع شروط الزواج اتفاقًا متينًا لا تشوبه شائبة، لكن طلبها الأخير هو إرسال خمسة آلاف جندي من خيرة جنود كورستين ليمثلوا الدريفليانز في جنازة مهيبة ستقام للملك إيغور داخل كييف، فمن واجب شعب كييف على أميرته أن تكرم ملكهم الراحل بجنازة تليق بدولتهم، وبذلك تضمن ولاء شعبها أكثر، وتسهّل الخطوة التالية، وهي الزواج.

في هذه المرة، لم يحاول تاراس توقع ما تنويه الأميرة التي داهمت الجميع في مرتين سابقتين، وكذلك عجز ديميتري عن التوقع، وبات حائرًا، من هنا على حق ومن على خطأ؟ هل كان إيغور يستحق الموت وبتلك الطريقة؟ وهل يستحق الثأر لموته إزهاق كل هذه الأرواح؟ وبهذه الطرق أيضًا؟!

بالتأكيد لم يجد الفتى إجابة، وقرر دفع كل هذه الأفكار من عقله وإخراج نفسه من هذه الدوائر المغلقة، لن يفكر سوى في توخي الحذر أثناء عيشه هنا، إلى أن تسمح له الأقدار بالعودة إلى أسرته، أو لا تسمح، فطالما يعيش بسلام، وطالما أن أسرته تظن أنه هنا في كييف يعيش منعمًا مكرمًا، فلا ضرر من البقاء، الأهم ألا يخاطر.

أنهى ديميتري أعماله وخرج لحضور الجنازة، تاراس

وزوجته وأولاده، أندريه وأسرته، وكل أفراد كييف يشاركون في الجنازة، تتقدمهم الأميرة أولجا، وإلى جانبها خواص رجالها، وبالطبع جنود الدريفليانز، استمرت المراسم المهيبة طويلًا، لقى فيها الأمير إيغور تكريمًا يليق بفتوحاته، ويدل على مقدار الحب الذي تكنه له زوجته.

***

استيقظ ديميتري مفزوعًا من نومه، إشارة عاجلة إلى كل رجال كييف بالتأهب، ماذا يحدث؟

هرع ديميتري بعد أن ارتدى ملابسه إلى ساحة القصر، هناك لم يكن أحد يتحدث لصاحبه، توزع عليهم المعدات الحربية فحسب، من المؤكد أن جنود كورستين طلبوا لقاء قادتهم الذين سبقوهم إلى هنا، وحينما تفاجئوا بأنهم أصبحوا رمادًا تذروه الرياح، اندلعت الحرب، هنا في كييف.

بالأمس، بعد جنازة طويلة أرهقت الجميع، أغدقت الأميرة أولجا على جنود كورستين بالأطعمة والمشروبات، وخصوصًا الخمور، وبطبيعة الحال بعد رحلة من كورستين إلى كييف، ثم المشاركة في جنازة منهكة، كانت البطون تتضور جوعًا، إلى جانب كونها بطون جنود؛ أي: أن وجباتهم لها قوانينها الخاصة، وبالفعل انقض الجميع على اللحوم بكافة أنواعها ومحوها من فوق طاولات الطعام، ثم شربوا

الخمور وأسرفوا في شربها، إلى الحد الذي أغرقهم جميعًا في سبات عظيم.

وحينما استيقظوا، مهلًا، لم يستيقظوا، بل دخل عليهم جنود أولجا وهم سابحون في أحلامهم، وأفنوهم عن آخرهم، خمسة آلاف جندي من قبيلة الدريفليانز تمت إبادتهم داخل قصر أميرة كييف في لحظات، ودون أن يصاب أي جندي من جنود أولجا ولو بخدش يسير.

هذا ما علمه ديميتري مثل غيره في ساحة القصر أثناء تلقي التعليمات، أي نوع من النساء هذه المرأة؟ أو أي نوع من البشر؟ هل هي بشرية من الأساس؟!

وفد من الرسل يُدفن حيًّا، وفد من أعالي القوم تُضرم فيه النيران، وخمسة ألاف جندي يُنحرون كالبعير، مقبرة جماعية، كل تلك الأرواح فقط في مقابل انشطار جسد الأمير إيغور إلى نصفين.

والآن، هل انتهت أولجا؟ كلا، لم تنتهِ، الآن هي تعد رجالها للانقضاض على كورستين بحملة عسكرية ضخمة، كما أدبهم أوليغ العراف، وكما روضهم إيغور بن روريك، الآن ولأول مرة بواسطة امرأة، سيتم تلقين الدريفليانز درسًا آخر يذكره التاريخ.

***

دائمًا، أنت لا تعرف كيف ستفاجئك الأقدار.

انقضى الوقت، ووجد ديميتري نفسه أمام أسوار مدينته الأم، يحمل معدات حربية ويتأهب للقتال في الصفوف المقابلة لأسرته، تاراس إلى جانبه، يفهم كل ما يدور بخلده دون أن يصرح به، النظرات بينهما كفيلة بذلك.

ينبغي أن تدور الآن رحى القتال.

ولكن، قبيلة فقدت أهم قادتها، ومن ثم فقدت خمسة آلاف جندي من خيرة جنودها، باتت غير قادرة على الدخول في نزاع مع داهية كأولجا، الرعب الذي ملأ نفوسهم بعدما أخبرهم رسل أولجا بمصير بعثاتهم الثلاثة كان كفيلًا بهزيمتهم، وبذلك دخلت أولجا ورجالها المدينة بكل سهولة، كان الدريفليانز يظنون أن قتل إيغور وعرض الزواج من أرملته هو أسهل الطرق للاستيلاء على العرش، لكن في الواقع كان ما فعلوه أسرع الطرق لقهرهم وإذلالهم إذلالًا تامًّا.

مرة أخرى تفاجئ أولجا الجميع، فبعدما خضع كل الدريفليانز تحت أقدامها طالبين الرحمة والمغفرة، ومعبرين عن أن دفع الجزية لها مرة أخرى هي أقصى طموحاتهم، قررت الأميرة العفو عنهم! بعد كل هذا الإعداد لتلك الحملة

العسكرية الضخمة، وخلال الفرصة المواتية للقضاء على الدريفليانز عن بكرة أبيهم، قررت أولجا السماح!

لم يكن أي فرد من الطرفين يتوقع أن تسامحهم أولجا بتلك السهولة، خصوصًا بعد انتقامها الرهيب الكائن على ثلاث خطوات، لكن هي امرأة غريبة صعبة المراس.

اكتفت أولجا بطلب ثلاث حمامات وثلاثة عصافير من كل بيت في كورستين لتعفو عنها، وعادت إلى أسوار المدينة على أن تنتظر رجالها بالخارج ليحصلوا هذه الضريبة الغريبة.

رغم أن جميع سكان كورستين تفاجئوا بهذا الطلب الغريب، لكنهم فرحوا فرحًا جمًا بعفو أولجا عنهم، وتسابقوا جميعا على تقديم الطيور إلى جنودها، ومن الواضح أن الحمامات هنا ترمز إلى السلام..

في خلال تلك الأحداث كان ديميتري قد تسلل مسرعًا إلى منزل أسرته، وبأسرع الطرق الممكنة أخبرهم عن الأحداث الرئيسية في قصة نجاته، وطالبهم بمغادرة المدينة فورًا إلى مدينة مجاورة؛ لأنه لم يكن يعلم نية أولجا إلى الآن، وهو ما انصاعت إليه الأسرة في الحال بعدما اطمأنت قلوبهم لعودة نجلهم سالمًا.

بعد بضع ساعات، انتهى رجال أولجا من جمع الطيور، وعاد

آخر رجل من رجالها إلى خارج أسوار المدينة بعدما تأكد أن كل بيوت الدريفليانز سلموا إليهم الحمامات والعصافير، والآن يجب على حملة أولجا العسكرية الاستعداد للعودة إلى كييف.

العودة إلى كييف؟! هل ما زلت تثق أن أولجا تسير حسب المألوف؟!

في قرار مفاجئ، أمرت أولجا رجالها بربط قطعة من القماش برجل كل عصفور وحمامة جمعوها من المدينة، وبالطبع انصاع الرجال لأوامرها ونفذوها في وقت قياسي، بعد ذلك أمرتهم بوضع قطعة من مادة من أشرس المواد القابلة للاشتعال -السلفر تقريبًا- على القماش المربوط بأرجل الطيور..

انتظرت الأميرة لبضع الدقائق وهي تنظر إلى المدينة من الخارج وكأنها تلقي عليها نظرة الوداع، ثم أصدرت الأمر إلى جنودها بإطلاق الطيور، وهو ما فعلوه..

بطبيعتها، عادت الطيور إلى الأماكن التي عاشت فيها، لكنها عادت وهي تحمل النيران في أطرافها، وفي غضون دقائق، تحولت كورستين بأكملها إلى كتلة من النيران، ابتلعت الحرائق المدينة بمن فيها، إن نظرت إلى عيون الأميرة في تلك اللحظة، فبإمكانك رؤية ألسنة اللهب تتراقص داخلها..

احترق أهل كورستين داخل منازلهم، ومن حاول منهم الفرار، استقبلته رماح جيش أولغا بالترحاب، ومن تفادى الرماح، تم أسره وبيعه كعبد.

وهكذا، كان فناء كورستين هو الضريبة المدفوعة جراء شطر جسد الأمير إيغور إلى نصفين على أرضها وبيد رجالها، أعطت الداهية أولجا ظهرها للمدينة المشتعلة، وأخيرًا، أمرت بالانصراف والعودة إلى كييف، بعدما انتهت من الثأر للأمير.

***

هنالك في مؤخرة الصفوف، كان ديميتري يودع تاراس خلسة بعدما حاول الأخير تعزيته، لكن الشاب أخبره أنه ولحسن حظه لم يأمن مكر الأميرة، وطلب من أهله المغادرة إلى مدينة تقع بالقرب من كورستين تعود إليها أصول والدته، ولابد من أنهم استطاعوا اللوذ بالفرار قبل احتراق كورستين، وهنا، عند هذه النقطة، سيتعانق ديميتري مع الرجل صاحب الفضل في نجاته للمرة الأخيرة في حياتهما، عناق حار ودموع صادقة، ثم تفارق الرجلان، إلى الأبد، تاراس إلى كييف، وديميتري تسلل خلف أسرته.

***

بعد قهر الدريفليانز، لم تنخرط أولجا في الحروب كسالف

الحكام، بل كرست وقتها للاهتمام بالشؤون الداخلية لمملكتها، أقامت الزيارات لكامل المملكة، من نهر ديسنا إلى بسكوف، بعد ذلك قامت بتطوير نظام الجزية، وأدخلت مفاهيم جديدة في تطبيقه لأول مرة.

أما عن غنائم كورستين، فتم تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء، ثلثي الغنائم كان من نصيب العاصمة كييف، والثلث الأخير تم توزيعه.

اعتنقت أولجا المسيحية عام 955م، وتم تعميدها في القسطنطينية أثناء زيارة لها إلى هناك عقدت خلالها اتفاقات مع الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع بورفيوجنيتوس، وحملت اسم «يلينا» المسيحي، الأمر الذي أثر فيما بعد على خيار حفيدها فلاديمير، الذي تقبل المذهب الشرقي الأرثوذكسي للدين المسيحي، وقام في عهده بتعميد الشعب الروسي كله، وباعتناقه الأرثوذكسية، وهو ما لم تقدر عليه أولجا بنفسها بعد عودتها من القسطنطينية، رغم أنها قامت آنذاك بهدم المعابد الوثنية في كييف.

وقع الكثير من الرجال بحب الأميرة ومنهم الامبراطور اليوناني الذي عشقها عشقًا جمًّا، لكنها راوغته ولم تقبل طلبه للزواج منها، حيث لم تكن تبادله نفس الحب، ولم ترق إليها فكرة العيش باليونان.

في عام 969م توفت أولجا، وقام ابنها الأمير سفياتوسلاف بدفنها وفقًا للتقاليد المسيحية في كنيسة القديس نيكولاس، بعد ذلك نقل حفيدها فلاديمير بقاياها إلى كنيسة ديسياتينا في كييف.

وبذلك، انطوت صفحة الأميرة أولجا، والتي تمثل واحدة من الشخصيات الذهبية في تاريخ أوكرانيا.

***

أهلًا بك يا عزيزي، حقًّا لقد اشتقت لك، أرى أنك استمتعت في أوكرانيا أكثر من بابوا، ألم أخبرك سابقًا أننا مختلفان قليلًا؟ لقد كانت أوكرانيا بالنسبة لي في غاية المتعة، لكن تبقى لبابوا مكانة خاصة بداخلي، خصوصًا وأنك لم تعرف مصيري كما عرفته وأنت في معية الأميرة أولجا...

مهلًا لم تنظر إلى بتشكك؟ لا لا، لا تقل لي أنك لم تتعرف على هويتي وتظن أنني تركتك وحيدًا!!

صدقًا، لقد أحبطتني، ألم أقل لك أنني لن أضيعك؟! كما أنني للمرة الثانية آتيك في هيئة عجوز أو كبير السن، يبدو أنك ضعيف الملاحظة!

لقد كنت أنا تاراس! ذلك الذي أنقذك من الدفن حيًّا!

على كل حال، بالرغم من أنه كان ينبغي عليك أنت تتعرف على بمفردك، لكنني لست غاضبًا، تربطنا صداقة وثيقة أنا وأنت أليس كذلك؟!

***

هدئ من روعك هدئ من روعك، لا تخف مما يحدث، تتأرجح كوكوريا في الكثير من الأحيان المتناقضة، مثلًا حينما تغضب وحينما تكون في غاية السرور، لكن بما أن هذه الاهتزازة -التي طرحتك أرضًا على وجهك- كانت ممزوجة بالزمجرة العالية، يمكنني التأكيد أن كوكوريا غاضبة، كما يؤسفني إخبارك بأن القواعد قد تتغير على نحو لا أعلمه، فقط تعلمه كوكوريا..

لكنني أخشى أنه يتعلق بعهدي المعتاد لك أنني لن أتركك تصاب بالأذى، فقد تكون كوكوريا حزينة لعدم قدرتك على تمييز الجسد الذي تسكنه روحي، أنا لست واثقًا مما أقول، لكن بفرض أسوأ الأحوال، توخ الحذر يا صديقي..

على كلٍّ، هيا بنا إلى المغامرة التالية.. بالضبط، النرد أولًا.. نعم، تمامًا كما فعلت، والآن، انظر إلى الشاشة معي.

تتحول الشاشة بأكملها إلى اللون الأبيض الناصع الذي لا تشوبه شائبة، بعد ثوان معدودات، تظهر بقعة حمراء اللون

في وسط الشاشة بالضبط، تبدو كقطرة دماء، تتعاظم البقعة الحمراء في الحجم بالتدريج، إلى أن تصبح كرة حمراء في وسط الشاشة البيضاء، نعم، إنه علم دولة اليابان، لكن باختلاف يسير، إن الكرة الحمراء بوسط العلم ليست كرة فحسب، بل قطرة كبيرة من الدماء، تسيل منها قطرات أخرى صغيرة إلى أسفل العلم في مشهد مهيب يبث الرعب في النفوس..

تزمجر كوكوريا مرة أخرى، يبدو أن ما تعرضه الشاشة قد جذب انتباهنا للحد الذي جعلنا نطيل التدقيق، وهو ما أغضب كوكوريا، هيا يا صديقي، هذه المرة ستسبقني أنت إلى هناك، وأنا من بعدك.

تنويه هام: كل المعلومات الواردة بخصوص الأميرة أولجا وزوجها ومقتله وانتقامها من الدريفليانز حقيقية، كل التواريخ والأحداث التاريخية الخاصة بالأميرة صحيحة، فقط ديميتري وتاراس وأسرهم هم إضافات الكاتب.

الفصل الثالث

٤٧ رونين

المكان: اليابان.

الزمان: القرن الثامن عشر.

أنت: جينكي أوسامي (شاب في العشرين من عمره، ذو جسد قوي وشعر أسود كثيف ناعم كالحرير).

***

- والآن بعدما أتممت القسم، يمكنك توديع والدك سريعًا..

قيل ذلك للشاب جينكي أوسامي الذي توجه بخطوات يملؤها الفخر والثقة إلى والده الذي يقف مبتسمًا في حبور..

- لقد تم كل شيء يا ولدي، بما أنك ألقيت قسمك لسيدك، ومن الآن فصاعدًا، عليك تنفيذ واجباتك التي أقسمت عليها بتفانٍ ومثابرة، ويجب عليك ألا تحيد عن البوشيدو أبدًا، وبما أنها قد تكون المرة الأخيرة التي أعلمك فيها عن البوشيدو، سألقي على مسامعك ما ألقيه عليك دائمًا، لطالما انتظرت هذه اللحظة يا بني، البوشيدو هي مجموعة القوانين الأخلاقية السامية التي يجب عليك كمحارب اتباعها، والبوشيدو يا ولدي لا تعاملك كمحارب فحسب، لا،

بل تهتم أيضًا بتقويمك في حياتك اليومية العامة، فمن الجانب الحربي تنمية مهاراتك القتالية وحالتك البدنية، وكذلك أيضًا ترفع من روحك المعنوية في القتال، كما تلزمك بإظهار الشجاعة والتحلي بالأمانة والإخلاص وروح التضحية، أما عن الجانب الحياتي، فهي ترشدك إلى الزهد والتقشف والتحلي بالآداب العذبة كالتواضع والسخاء والبساطة...

وكما تشدد البوشيدو على طاعتك لوالديك، فإنها أيضًا تؤكد على أن طاعتك لسيدك هي الأولوية القصوى والواجب الأسمى، حتى لو على حساب والديك يا بني، لن أطيل عليك ما تعلمه وتحفظه عن ظهر قلب، أريدك فقط أن تعلم أنني فخور بك، كنت وسأظل، وأتمنى لك التوفيق دومًا..

ثم تعانق الرجل مع ابنه، ومن ثم افترقا، ليعود الأب من حيث جاء، ويلتحق الابن بوحدة سيده، الدايميو..

***

الدايميو كان لقبًا يطلق على الأسياد الإقطاعيين في اليابان، وكلمة دايميو مشتقة من اللفظين داي الذي يعني كبيرًا أو عظيمًا، وميو الذي يعني اسمًا، فإذا ما ترجمت الكلمة للإنجليزية تُعطي معنى اسم عظيم، لكن أغلب الآراء تذهب إلى أن ميو في هذا اللقب ترمز إلى ملكية الأرض، فيصبح

الاسم مشيرًا إلى الملكية الضخمة للأراضي، وهو ما يتناسب مع هوية الزعماء الإقطاعيين.

بدأ أمر هؤلاء الزعماء الإقطاعيين في الفترة (794 - 1185 م)، حيث كانوا على رأس مجموعة من المحاربين أوكلت لهم مهمة إدارة الأراضي التي يملكها النبلاء، والذين شكل أقرباء الامبراطور الياباني غالبيتهم.

في عام 1192م قام أحد هؤلاء الرجال، وهو « مينامونو نو يوريتومو » بالاستيلاء على حكم البلاد بالقوة، ثم اتخذ لنفسه لقب شوغون، والذي يعني الحاكم العسكري للبلاد، آنذاك أسس مينامونو أول حكومة عسكرية في البلاد وكانت تدعى: « باكوفو «..

وعلى الرغم من أن الأباطرة استمروا في الوجود، إلا أن سلطتهم كانت سلطة روحية وصورية فقط لا غير، بينما كان الشوغون هو الحاكم الفعلي للبلاد.

كان من دأب مينامونو -ومن تبعوه في منصب الشوغون- أن يكافئوا أتباعهم بمنحهم حقوق إدارية على الأراضي التي كان يمتلكها النبلاء السابقون، ومن هنا، بدأ وجود الدايميو.

اعتاد الشوغون الاعتماد على الدايميو في حكم المقاطعات، فكان كل دايميو يحكم مقاطعة أو أكثر نيابة عن

الشوغون، وعلى مر القرون ازدادت قوة وسيطرة هؤلاء الإقطاعيين، فنظرًا لمكانتهم المرموقة، اعتاد كل دايميو على تأجير وحدة من محاربي الساموري لحماية عائلته وممتلكاته، وأصبحت هذه الوحدات تعتبر كجيوش خاصة بالمقاطعات.

***

بعدما انتهى من القسم ومن توديع والده، على عَجَلٍ التحق الشاب اليافع جينكي بباقي أفراد وحدته الذين اصطفوا في صفوف منضبطة بحسم، مظهرين التبجيل والاحترام للدايميو « أسانو ناغانوري « - دايميو مقاطعة أكو - الذي سيلقي عليهم بعض الأخبار الجديدة..

حيا اللورد أسانو محاربي الساموراي بوقار، ثم بدأ في تلاوة ما يحمله إليهم قائلًا: لقد قام الامبراطور « هيجاشياما « بإرسال بعض المبعوثين الامبراطوريين من مقره في العاصمة كيوتو إلى بلاط الشوغون بايدو (طوكيو حاليًا)، وبينما كنت أؤدي واجبي في العاصمة، وقع عليّ اختيار الامبراطور للقيام بمهمة استقبال والاعتناء بمبعوثيه، كما وقع اختياره على الدايميو « كامي ساما « من مقاطعة تسونامو لمعاونتي في أداء المهمة، وعليه، فإنه يتوجَّب على الذهاب إلى بلاط الشوغون لأتلقى التدريب على آداب

الاستقبال والتعامل في البلاط بواسطة مسؤول رفيع المستوى، يشغل رئاسة قسم مراسم الاحتفالات والزيارات، ويُدعى « كيرا يوشيناكا »، خلال هذه الفترة سأصطحب البعض منكم، فيما سيظل البقية في أماكنهم لمتابعة أعمالهم، ويوكل قائدكم باختيار الأسماء التي سترافقني، على أن يكونوا مستعدين في صباح الغد للمغادرة.

أنهى الدايميو أسانو ناغاتوري – ذو الأربعة والثلاثين ربيعًا – حديثه ثم غادر، فيما انتظر محاربو الساموراي لمعرفة من سيقع عليه الاختيار.

في كلمات سريعة ودقيقة، أخبر قائد الساموراي – الذي يدعى أويشي - رجاله بالأسماء المختارة لمرافقة أسانو إلى بلاط الشوغون بايدو، وكان الشاب جينكي أوساني من ضمن المختارين، بعد ذلك غادر بقية الرجال إلى مواقعهم، فيما استمع المختارون لتعليمات قائدهم، والتي كانت بمثابة تأكيد على أن دورهم هو حماية الدايميو أسانو مهما كانت المخاطر التي تواجهه، ومهما كانت الأفعال التي سيضطرون إليها لحمايته، حتى وإن كانت عصيان الشوغون نفسه، أو عصيان الامبراطور، أكد القائد لرجاله على أنهم رجال ساموراي لا يهابون الموت، ولا يتخلون عن شرفهم، وحماية الدايميو الذي يتبعونه هو الشرف الأسمى..

كان جينكي يعلم في قرارة نفسه أن كل ما قاله القائد هي تعليمات روتينية لابد من إعادتها على رجاله قبل كل مهمة أيًّا كانت، فمثلًا هذه المهمة لا تحتوي على عراقيل أو مخاطر أو نزاعات، فلا داعي لتلك العبارات الرنانة المؤكدة على أهمية حماية مولاهم، فحتى إن استدعى الموقف ذكر هذه التعليمات، فهم من الأساس يعلمونها تمام العلم، بل هي الأساس الذي يسيرون بناءً عليه في حياتهم كمحاربي ساموراي، على أية حال، تلك هي البروتوكولات، ويجب التعود على الإصغاء لمثل هذا الحديث؛ لأنه سيسمعه في كل حين طالما التحق بوحدة ساموراي..

بعدما انتهى القائد من التأكيد على كل مبادئ الساموراي في صيغة تعليمات، انتقل إلى الأمر الوحيد الذي يمكن اعتباره أمرًا جديدًا، وهو الحرص على عدم افتعال أي نزاعات مع وحدة الحماية الخاصة باللورد كامي ساما، فاللوردان الشابان – أسانو وكامي – هما صديقان جيدان، فلا ينبغي على وحدات الحماية تعكير صفو هذه الصداقة بنزاعات سخيفة، وإلا فهم ليسوا من الساموراي في شيء.

وعلى الرغم من أن هذا الأمر المباشر يعد أمرًا جديدًا في حلته، إلا أن جينكي كان يراه قديمًا في باطنه، فمن البديهي أن الساموراي لا يقومون بافتعال النزاعات، إلا من أجل

حماية سيدهم.

***

في ايدو، عاد أسانو ليلتقي بأتباعه الساموراي بعدما انتهى من مقابلة كيرا يوشيناكا المسؤول عن تدريبه..

وعلى مرأى ومسمع من جينكي ورفاقه، حدث أسانو قائد الساموراي عن عدم ارتياحه هو واللورد كامي لهذا الرجل الذي يدعى كيرا، فهو لم يحسن استقبالهما، كما عاملهما بحدة غير مبررة وفظاظة فجة، حاول قائد الساموراي عزو تصرفات كيرا لكونه يقوم بمهمة في بلاط الشوغون وتختص بمبعوثي الامبراطور، فلابد من بعض الحدة والحسم حتى لا يتراخى اللوردان في أعمالهما، وحتى لا يتهاونا بأهمية المهمة الموكلة لهما، صمت أسانو لبعض الوقت وكأنه يفكر في كلام قائد أتباعه، إلا أنه هز رأسه بالنفي في الأخير معربًا عن عدم اقتناعه، ثم قال: لا أشعر بذلك، هناك شيء ما بداخله، أغلب ظني أنه شخصية متعجرفة تتعامل مع الآخرين بتعالٍ.

نصح القائد سيده قائلًا: في كل الأحوال، هي مهمة سريعة يا سيدي، وينبغي عليك الصبر من أجل الشوغون، فلا ضرر في تحمل بعض السخافات لإتمام المهمة على أكمل وجه، هذا وإن كان ظنك في كيرا هذا صحيحًا من الأساس، فمن

الممكن أن تلك الطريقة هي أمر عارض لن يتكرر مرة أخرى..

نظر أسانو للقائد ووضع يمناه على كتفه قائلًا: نأمل ذلك، وإن كان ظني صحيحًا، فلنتحمل من أجل الشوغون، الشخص الوحيد الذي أدين له بالولاء في هذه البلاد.

***

مرت الأيام سريعة على جينكي ورفاقه، بطيئة على أسانو وكامي، كان أسانو كل ليلة يعود إلى أتباعه ليحدثهم عن معاملة كيرا التي تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، فآخر ما يتمناه أسانو في هذه الفترة هي ضغوط إضافية فوق ضغوط مهمته، ومِمَن؟ من الشخص الذي ينبغي عليه مساعدته على أداء هذه المهمة على أكمل وجه!

كما أن آخر ما يستطيع فعله، هو السكوت على الإهانة، وأنه إلى الآن يتحمل من أجل الشوغون، لكن إن ظل الوضع على ما هو عليه، فإن لحظة الانفجار ستأتي على حين غرة، وحينها لن يستطيع أحد إيقاف الغضب الجامح.

بينما يسمع الساموراي تضرر سيدهم وحنقه، قال القائد أويشي بتأدب إن من ضمن ما يعلمه فيما يخص مسؤولي بلاط الشوغون، أنهم ينتظرون الهدايا من اللوردات القادمين للتدريب تحت أيديهم للقيام بمهمة ما، فكلما كانت الهدايا

سخية ومرضية، كانت معاملتهم أفضل..

غضب أسانو مما سمعه من أويشي ثم قال: رشوة؟ هل تتوقع مني تقديم رشوة؟

وهنا تدخل جينكي مندفعًا في الحديث قائلًا: لا يعتبرونها كرشوة هنا يا سيدي، بل المعنى السائد عندهم أن هذه الهدايا تدل على السرور لكونك تتلقى التدريب تحت أيدي مسؤول رفيع المستوى ومقرب من الشوغون، كما تدل على التقدير والامتنان لمجهودهم المبذول في التدريب...

بعدما أنهى جينكي ما قاله أيقن على الفور الخطأ الفادح الذي ارتكبه بالحديث دون إذن، فقدم اعتذاره على الفور من تلقاء نفسه، ولكن ذلك الاعتذار لم يكن كافيًا للقائد الذي شرع في تعنيفه حتى تدخل أسانو مخبرًا إياه أنه لم ينزعج، ثم توجه بحديثه نحو جينكي قائلًا: تبدو ذكيًا ومطلعًا، لكن هل تتوقعون جميعكم أنكم تفوقونني اطلاعًا؟ بالتأكيد أنا أعلم كل ما قلتموه، لكنني لا أتعامل بمثل هذه الطرق ولا أسلكها.

حاول القائد تغيير مذهب سيده درءًا للأضرار، فما كان من أسانو إلا أن قال: سنرى، ثم كررها مرتين وغادر.

بعد ذلك تحدث القائد أويشي مع جينكي على انفراد حديثًا مقتضبًا، أخبره فيه أهمية اتباعه التعليمات والآداب في

الحديث وفي غير الحديث، ولم تكن نبرته عنيفة في هذه المرة، حيث حدثه من منطلق كونه رفيقًا له في وحدة الساموراي وليس قائده، وأخبره ألا قائد لمحاربي الساموراي سوى سيدهم، لكن يشرف الأكبر خبرة على البقية لتسهيل التواصل مع سيدهم، ولتعميم الضبط والالتزام، وهو ما تلقاه جينكي بصدر رحب وكرر اعتذاره..

كان جينكي يعلم أن أويشي هو قائد الساموراي، وأن ما قاله بأنه ليس للساموراي قائد كان للتلطيف ليس أكثر، وهو ما أشعر جينكي بالمزيد من الأمان والتحفز لكونه جندي ساموراي يحمي اللورد أسانو..

لقد كان أويشي قائدًا في قمة الذكاء.

***

في اليوم التالي عاد أسانو بعد جلسة التدريب، ويبدو أن السيل قد بلغ الزُّبى، وعندما تحدث اللورد مع أتباعه، أخبرهم مجددًا أن كيرا لا يترك أي فرصة لإبداء ازدرائه لهما إلا واقتنصها، كما أنه يتحين اللحظات المناسبة لإحراجهما أمام بلاط الشوغون بأكمله، حتى إن كامي قد وصلت به الأمور للعزم على قتل كيرا، غير أن أسانو ومحامي كامي قاما بتهدئته وحثه على الصبر والتحمل، وهنا سأل قائد الساموراي سيده عما ينوي فعله..

فأجاب أسانو: سنصبر من أجل الشوغون، لكن بما أنني مضطر لتحمل هذه السخافات، سأقوم بالرد على طريقتي الخاصة.

***

في اليوم التالي، داخل البلاط بايدو، كان كيرا يوشيناكا يتفنن في إحراج اللورد أسانو أمام جميع الحضور، كما لاحظ أسانو أن كيرا يتعمد تعليمه الكثير من المبادئ بطريقة خاطئة، حتى إذا ما جاء يوم استقبال مبعوثي الامبراطور، سيطبق أسانو أصول الضيافة كما تعلمها من كيرا، وبالتالي سينزعج المبعوثون وسيكون انطباعهم عن أسانو للامبراطور سلبيًّا، من حسن الحظ أن أسانو كان يعلم بعض تلك المبادئ مسبقًا، وهو ما أعطاه الفرصة للتحقق من أن كيرا كان يتعمد تعليمه بالطريقة الخاطئة فعلًا، لكن من ناحية أخرى، أغلب مبادئ الضيافة في بلاط الشوغون لم يكن أسانو يعلم عنها شيئًا، والآن ليس لديه فرصة للتعلم سوى من كيرا، يا له من مأزق لعين!

عقب الانتهاء من التدريب التقى أسانو باللورد كامي، والذي تدرب منفردًا للمرة الأولى منذ مجيئهما، ففي كل يوم كانا يتدربان سويًّا، سوى اليوم..

حيا كل منهما الآخر وبعدها سأل أسانو عن سبب الفصل بينهما اليوم لأول مرة، لكن كامي راوغه وتملص من الإجابة وانتقل بالحديث إلى موضع آخر، لم يرد اللورد أسانو إظهار تشككه من موقف كامي، وعاد ليجس نبضه، حيث لمح له بأنه تيقن من أن كيرا يتعمد تعليمه بطريقة خاطئة، لم يستغرب اللورد كامي كثيرًا، وجاءت إجابته بعرض المساعدة على أسانو، فهو الآن على علاقة جيدة بكيرا ولابد أنه يتعلم بطريقة صحيحة..

زادت حيرة أسانو! كيف أصبحا على علاقة جيدة؟ وبما أن اللورد كامي يعرض عليه المساعدة بلطف، لم يتملص من الإجابة على سؤال فصلهما؟

قرر أسانو قطع الشك باليقين ثم كرر السؤال على كامي مرة أخرى: هل لديك فكرة عن سبب الفصل بيننا اليوم بالتحديد؟!

توتر اللورد كامي قليلا ثم أجاب: حاولت الهروب من سؤالك للمرة الأولى، لكنني أعلم أنه من واجبي إخبارك السبب..

قاطعه أسانو قائلًا: ولم حاولت الهروب؟

كامي: أنا محرج منك قليلًا، في الواقع فإن المحامي

الخاص بي تصرف من تلقاء نفسه وذهب إلى اللورد كيرا في مساء الأمس، وأهداه صندوقًا مليئًا بالمجوهرات القيمة، فعل ذلك باسمي، ثم عاد ليخبرني بما فعل، في البداية احترقت غيظًا، وصببت عليه جام غضبي، لكنني أعلم نيته..

قاطعه أسانو مرة أخرى: وأنا أعلمها، هو يريد مساعدتك..

رد كامي مسرعًا: نعم، لكن أقسم لك إنه فعل ذلك دون إذن مني، لو كان أخبرني ما كنت لأوافق سوى بعد التشاور معك، لنفعلها سويًا أو لنقلع عنها سويًا، لكن هذا ما حدث..

أسانو: إذًا فهذا هو سبب الفصل بيننا..

كامي: لابد أنه كذلك، أنا آسف..

أسانو: لا عليك لورد كامي، لا يحق لي الانزعاج منك، ولا حتى من محاميك، فدوافعه نقية ومليئة بالإخلاص..

كامي: على أية حال، ما زال الوقت لدينا، وبما أن تقديم هذه الهدية الملعونة أتى بنتائج جيدة في اليوم التالي مباشرة، افعل ذلك بالغد، واسترح من هذا العناء، واترك لعقلك الفرصة للاستعداد ليوم الاستقبال..

أسانو وهو يهم بالمغادرة: سنرى، ثم كررها مرتين كعادته..

بعدما أعطى أسانو ظهره لكامي ليغادر، أوقفه الأخير

واضعًا يده على كتفه وهو يقول: أخشى أن قيامي بمهاداة اللورد كيرا ستنعكس عليك بالسلب إن لم تفعل الأمر ذاته، تأنَّ في اتخاذ القرار يا صديقي..

أومأ اللورد أسانو لصديقه معربًا عن شكره وتفهمه، ثم افترق الرجلان..

***

في اجتماع اللورد أسانو برفاقه، أخبرهم عمَّا فعله محامي اللورد كامي، وما ترتب عليه من عزل اللوردين في التدريب، وتضاعف السوء الذي يبديه كيرا، من جديد حاول القائد أويشي إقناع سيده بالعدول عن وجهة نظره، وأن يقدم هدية قيمة لكيرا ويتفادى كل هذه المهاترات السخيفة، من أجل الشوغون ومن أجل الامبراطور..

في هذه الجلسة أخد اللورد أسانو آراء الجميع، منهم من وافق أويشي وهم أغلبية ساحقة، ومنهم من اختلف مع أويشي واتفق مع الرأي الأول لأسانو، وهو تجاهل اللورد كيرا تمامًا، وكان جينكي من الفريق الثاني، وبرر رأيه لأسانو بأنه لا يضمن رد فعل كيرا، فمن الممكن أن يراك مضطرًّا لفعل ما فعله صديقك حتى لا تلام، وهنا قد لا تتغير معاملته معك مثلما تغيرت مع اللورد كامي، وفي هذه الحالة تصبح قد خسرت الكبرياء، ودون مقابل!

وفي نفس الوقت، عرض اللورد كامي المساعدة بما سيتعلمه من كيرا بعدما طابت العلاقة بينهما، فبالتالي ليس هناك قلق بخصوص استقبال المبعوثين بالطريقة المثلى..

بدى على وجه أسانو الارتياح لرأي جينكي، وهنا تدخل أويشي مسرعًا قائلًا: سيدي، أنت تعلم أهمية التقاليد في الامبراطورية، وتعلم العواقب الوخيمة لمخالفتها، إن أخطأ اللورد كامي دون قصد في نقل ما تعلمه قد يعرضك ذلك لعار أنت في غنى عنه، تعاليت عن ذلك يا سيدي..

دون أن ينطق بكلمة، شق اللورد أسانو طريقه مغادرًا في صمت، لكن صوت أويشي قطع هذا الصمت مترجيًا: سيدي، أرجوك ألا تسلم رقبتك للقدر..

لم يلتفت أسانو الحاسم لأمره إلى ما قاله أويشي، وأكمل طريقه في هدوء.

***

في صباح اليوم التالي، أخبر جينكي رفاقه عن سبب استدعاء اللورد أسانو له في وقت متأخر من مساء البارحة، لقد أرسله بهدية إلى كيرا..

تنفس أويشي والبقية الصعداء لما سمعوه، لكن سرعان ما

انقبضت صدورهم مرة أخرى وبطريقة أثقل عندما علموا بما أهداه أسانو لكيرا، أخبرهم جينكي أن اللورد أسانو بعثه بسمكة مجففة كهدية لكيرا، ورسالة مفادها التقدير والامتنان لما يبذله من مجهود في مساعدته..

- اللورد أسانو ملك الكبرياء، لن يتغير البتة، ولذلك فكل مقاطعته تعشقه، أكو تتنفس حب اللورد أسانو، قال ذلك أحد الرجال..

بينما سأل آخر: وماذا عن رد فعل كيرا؟

= كان بإمكاني أن ألمح الشياطين المتصارعة في عقله من موضعي، كما كان بإمكاني أن أسمع صوت أسنانه تطحن بعضها البعض، أما عيناه، فتغير لونهما للأحمر تقريبًا، قال ذلك جينكي.

أطلق أويشي زفيرًا طويلًا كما لو أنه كان يحبسه منذ عام ثم قال: نسأل السلامة..

بعد ذلك أخبر أويشي رجاله على الفور بأهمية تواجدهم في ساحة التدريب اليوم، حتى إذا حدث ما لا يحمد عقباه، يكونوا على مقربة من سيدهم..

وبالفعل، بساحة التدريب، اصطف الساموراي لمشاهدة ما يجري، لم يكن نقاشًا يوحي بأن المتناقشين هما معلم

ومتعلم، لا، بل وكأنه نقاش حول هدنة بين رجلين قتل كل منهما للآخر ألف جندي، كانت كلمات كيرا غليظة وثقيلة الأثر، تعجب أويشي من قدرة سيده على تحملها ومراوغتها، وقلب الحديث على كيرا بتهذيب خارجي وتأديب باطني..

لكن كأي حرب ضروس، فإن نقطة الصفر لابد لها أن تأتي، وها هي قد أتت عندما اشتد غضب كيرا ووصف أسانو بانعدام الأخلاق!

هنا، لم يستطع أسانو مواصلة جلده، وفعل ما كان أويشي يخشاه، أشهر اللورد أسانو سيفه وتوجه به نحو كيرا محاولًا قتله، لكن سرعان ما تدخل حرس البلاط وفضوا النزاع دون وقوع إصابات بالغة، فقط جرح بالوجه قد أصاب اللورد كيرا..

الجميع في بلاط الشوغون يعلمون مدى فداحة الأمر الذي ارتكبه اللورد أسانو، فمن أول اللورد كيرا، إلى جينكي أحدث ساموراي، حتى ابن أويشي البالغ من العمر خمسة عشر عامًا كان يعلم أن جزاء إشهار السيف في بلاط الشوغون، هو الإعدام.

بسرعة عاد أويشي ورجاله باللورد أسانو إلى مسكنه بالبلاط، لم يستطع أي منهم التفوه بأي كلمة، لا اللورد ولا الساموراي، وظل الصمت الجاثم إلى إن جاء أحد جنود

الشوغون لاصطحاب اللورد أسانو إلى قاعة الشوغون الرئيسية، وحده دون رفاق..

الجميع يعلم قدسية التقاليد والقوانين والأحكام بالامبراطورية اليابانية، وعلى رأسهم اللورد أسانو، والذي كان يسير إلى الشوغون بخطوات واثقة رغم علمه تمام العلم بأن ساعات قليلة تفصله عن حكم الإعدام، لكن، كانت الكرامة أكثر أهمية..

فور الوصول، انحنى أسانو أمام سيده بعدما حياه وأبقى وجهه يقابل الأرض، وبتعابير جامدة وصوت غليظ، قال الشوغون ما يلي..

« لورد أسانو، أنت تعلم أن الإعدام هو جزاء إشهار السيف في بلاط الشوغون، خصوصًا وإنك قمت بمهاجمة موظف شوغونيتي رفيع المستوى، كان يؤدي عمله لإعدادك بالطريقة المثلى، ونظرًا لإنجازاتك العديدة وإخلاصك المعهود للشوغون، فإنا نمنحك الفرصة للموت بشرف وكرامة، بتنفيذ السيبوكو، بعد ساعة من الآن ».

ثم أشار لجنوده فقاموا باللورد أسانو الذي كرر تحيته للشوغون، وغادر نحو رجاله.

كان السيبوكو طقس من الطقوس المعهودة للساموراي

المؤمنين بالبوشيدو، وكان يتم كما يلي، يقوم الساموراي بالاغتسال وارتداء رداء أبيض يسمى الكيمونو، بعد ذلك يتم إطعامه بما يشتهي من الطعام، وحينما ينتهي من تناول الطعام، يوضع أمامه سيف على طبق من طباق الأكل، حينها يقوم الساموراي بفتح ردائه -الكيمونو- والتقاط السيف الموضوع أمامه، ومن ثم يغرس السيف في بطنه ويحركه من اليسار إلى اليمين مستخدما إياه في تقطيع أحشائه، كل هذا ومساعده، أو أكبر رجاله إلى جانبه بعد ذلك، يقوم شخص ما إلى جانب الساموراي بضرب عنقه، ولكن بطريقة معينة وغاية في الدقة والحرفية، حيث يقطع عنقه دون أن يفصل الرأس عن الجسد، أي أن الرأس تظل متصلة بالجسد بواسطة قطعة صغيرة من اللحم بعد قطع العنق، وعادة ما يقوم الساموراي الذي ينفذ السيبوكو باختيار أحد رجاله للقيام بهذه المهمة الصعبة التي تتطلب الكثير من التدريب..

كان الساموراي يقومون بتنفيذ السيبوكو في حالتين: الأولى في حالة الحرب، إن كان الساموراي على مقربة من السقوط في أيدي العدو، فإنه يقوم بتنفيذ السيبوكو للحفاظ على شرفه وكرامته من القتل بأيدي العدو أو الأسر، والثانية هي في حالة اللورد أسانو، حيث تدل السيبوكو في هذه الحالة على مسح عار الخطأ الذي ارتكبه اللورد، كما توحي بالاحترام والطاعة للشوغون، وتمنح السيبوكو كفرصة

للموت بشرف..

***

بعدما اغتسل اللورد أسانو وارتدى لباس الكيمونو الأبيض، وقبل تناول الطعام، التقى بأويشي لإخباره بوصيته، كان الحزن يعتصر قلب أويشي الذي احتج لسيده -بصوت مفعم بالألم- على قرار الشوغون، فاللورد كيرا هو من دفع أسانو لما قام به..

هدأه أسانو قائلًا: أنت تعلم القوانين يا أويشي، ولا وقت لدينا للبكاء، سيدك سيموت بكرامة وشرف، كما عاش بهما، أوصيك بحماية مقاطعتنا أكو من الأعداء والمتربصين، كما أوصيك بحماية أسرتي..

لا تحزن، سيشعر المواطنون في أكو بالفخر؛ لأن سيدهم تقبل الموت بشجاعة ولم يهابه..

أويشي، لقد كنت خير الرجال، أنا فخور بصحبتك..

تمالك أويشي دموعه بصعوبة بالغة، واستمر في الانحناء أمام سيده، إلى أن قام أسانو وغادر ليتناول طعامه قبل تنفيذ السيبوكو.

***

بعد تناول الطعام، وأمام الشوغون ومساعديه، التقط اللورد أسانو السيف بعدما جثى على ركبتيه، نظر اللورد إلى مساعده أويشي -الذي يقف إلى جواره- نظرة مفادها التأكيد على وصيته، ثم نظر إلى الشوغون بكبرياء، وبعدها، غرس اللورد أسانو السيف في بطنه، وبتحمل وجلد وشموخ، حرك أسانو السيف من اليسار إلى اليمين مقطعًا أحشاءه، بعد ذلك، أعاد النظر بثقل إلى أويشي، حيث كان قد اختاره لقطع عنقه، قبض أويشي على سيفه ورفعه في الهواء، لطالما ارتفع هذا السيف للدفاع عن السيد أسانو ناغانوري، لكنه الآن، يهوى على عنقه لإنهاء قصته الزاخرة بالكبرياء والعزة.

دُفن الدايميو أسانو ناغانوري في معبد سينجاكوجي، وعاد الساموراي إلى أسرة أسانو في أكو، لكن قبل ذلك كان الشوغون قد أخبر أويشي بأنهم أصبحوا رونين، أي ساموراي بلا سيد، وأن ولاءهم الكامل الآن ينبغي أن يكون للشوغون، وبناء عليه قام بأمرهم بنسيان أمر الانتقام للورد أسانو نهائيًا، كما أبلغهم قراره بمصادرة أملاك أسانو، وأنه سيتسلم قلعته في أكو بعد يومين..

***

في أكو كان أتباع اللورد أسانو، الساموراي سابقًا، الرونين حاليًا، والبالغ عددهم ثلاثمائة محارب أو يزيدون، في نزاع

واختلاف فيما بينهم حول ما يجب فعله في المرحلة القادمة، فريق منهم رأى أن سيدهم أسانو قد رحل، وبذلك فإن قسمهم له قد سقط، وأن ولاءهم الحالي يجب أن يكون للشوغون، وعليه فإنهم فضلوا مغادرة قلعة اللورد أسانو والانصياع لأوامر الشوغون، واستكمال بقية حياتهم كرونين، أي: محاربين سابقين، أما الفريق الثاني فرأى أن العار الذي لحق بهم عندما أصبحوا رونين لن يمسح عن جباههم إلا بوفائهم للقسم الذي أقسموه لسيدهم الراحل، وعليه فقد قرروا مخالفة أوامر الشوغون، والبقاء داخل قلعة اللورد أسانو رافضين تسليمها لآخر لحظة ممكنة، أما الفريق الثالث بقيادة أويشي، فظلوا في حيرة من أمرهم.

لكن في النهاية، اتفقوا فيما بينهم وحسموا قرارهم، وعليه خرج أويشي ومن معه من رجال عددهم ستة وأربعون رونين بالخروج من قلعة اللورد أسانو بأكو تنفيذًا لقرار الشوغون، الذي قرر مصادرة الممتلكات وتشريد أسرة أسانو داخل المقاطعة، ثم لحق الفريق الأول بفريق أويشي وغادر القلعة بدوره تاركين الفريق الأخير داخل القلعة في صراع دامٍ مع جنود الشوغون وقواته، إلى أن انتهى بهم الأمر كقتلى، وتسلم الشوغون قلعة اللورد أسانو، كباقي ممتلكاته..

كان جينكي من ضمن الستة وأربعين رونين الذين خرجوا

من القلعة خلف قائدهم أويشي، لكنه كان في قمة الغضب والسخط على أويشي الذي اختار حياته، ولم يختر تنفيذ وصية سيده وترك أسرته تتشرد..

***

على الجانب الآخر، كان اللورد كيرا شديد الاحتياط، لم يأمن انصياع أتباع أسانو لأوامر الشوغون، فقام بتحصين قلعته بمقاطعته بالعديد من الحراس، عزَّز دفاعات الأسوار والبوابة الرئيسية، ونشر جواسيسه يتنقلون داخل المقاطعات ليأتوه بأخبار أتباع اللورد الراحل أسانو ناغانوري...

بعد فترة، كانت الأخبار التي عادت بها الجواسيس مطمئنة للغاية، فالساموراي قد ارتضوا بكونهم رونين، تركوا هويتهم كمحاربين والتحقوا بوظائف جديدة، البعض يعمل بالتجارة، والبعض بالزراعة، حتى أن البعض ترك العمل من الأساس واتجه إلى الرهبنة..

رغم أن هذه المعلومات التي تلقَّاها كيرا من جواسيسه كانت جيدة جدًّا، إلا أن جزءًا ما بداخله كان متمسكًا بالحراسة المشددة على القلعة، كان هذا الجزء هو الجزء الخائف من أويشي على وجه التحديد، حيث إن الجواسيس لم يجدوا له أثرًا على الإطلاق، وهو ما جعل كيرا يأمر

جواسيسه بالكف عن مراقبة البقية والذهاب إلى منزل أويشي وتقصي حقيقته من جيرانه، وعدم الاكتفاء بمراقبة الطرقات المؤدية إلى مسكنه..

وبالفعل، تسلل الجواسيس في هيئات متعددة إلى الحي الذي يسكنه أويشي، وعادوا إلى سيدهم كيرا بأخبار مبهجة، فبعد سؤال الجيران تبين أن أويشي قد أصيب بنوبة نفسية حادة جراء خيانته لقسمه الذي أقسمه لسيده أسانو، وعدم مقدرته على الوفاء به، مما جعله سكيرًا عربيدًا يتنقل بين الحانات، وينفق أمواله على النساء المومسات، حتى أنه قد قام بتطليق زوجته وتركها وحدها بالمنزل، أما عن ابنه الذي كان معه في وحدة الساموراي، فلم يعد يراه أحد، ومن المرجح أنه ترك المنزل للعمل بأي وظيفة حتى يستطيع إطعام أمه بعدما غادرهم أبوه..

تلقى كيرا هذه المعلومات بارتياح، وأمر بتخفيف الحراسة بعض الشي، كما أمر جواسيسه بمواصلة البحث عن أويشي حتى يروا حالته بأمهات أعينهم..

بعد ستة أشهر، عاد أحد الجواسيس إلى كيرا والفرحة العارمة تقفز من عينيه وهو يطالب بمكافئته على هذا الخبر الرائع، تلهف كيرا لسماع الخبر الذي يحمله الجاسوس، وما أن علمه حتى أغدق عليه بالكثير من العطايا، وأمر مرة

أخرى بتخفيف الحراسة على القلعة، لكن على كل حال بقيت الحراسة مشددة وصعبة، لكنها أخف مما كانت بعد موت أسانو..

كان الجاسوس قد رأى أويشي في مقاطعة ساتسوما يفترش الأرض بعدما أنهكه السكر وأذهب عقله، حتى إن أحد جنود الساموراي الخاصين بهذه المقاطعة عندما تعرف على أوتشي قام بركله في وجهه مهينًا إياه أشد إهانة، وأطلق عليه وابل من الشتائم والسباب لكونه قد فضَّل العيش بلا كرامة ولا شرف كرونين على البقاء في القلعة واللحاق بسيده إلى الموت، كما فعل الساموراي الشرفاء الذين قتلوا بواسطة جنود الشوغون..

تأكد كيرا من أن رجال أسانو قد ارتضوا العيش في سلام، وبات يتمتع بحياته دون خوف أو قيود...

***

بعد مرور عام على موت أسانو ناغانوري،

كان جينكي أوساني - الرونين الذي عمل كبناء – مستلقيًا يفكر إلى جوار زوجته الناعسة بمنزل عائلته حينما سمع صهيل حصان إلى جوار المنزل، خرج جينكي بهدوء - حتى لا يوقظ زوجته - ليتبين شأن هذا الصهيل، بالخارج، كان

شاب يافع يمتطي جوادًا أصيلًا ويقف به أمام منزل جينكي تمامًا، سأل جينكي: من أنت؟

نظر الشاب الملثم مباشرة إلى عيني جينكي ولم يتفوه سوى بجملة واحدة: عند بحيرة هونجو، في منتصف الليل..

ثم أشهر الشاب سيفًا من النوع واكيزاشي (وهو سيف ياباني قصير يسمى صديق الساموراي)..

نظر جينكي إلى السيف مليًا، نعم! هو يعرف هذا السيف جيدًا، لكن قبل أن يتحدث جينكي، كان الشاب الملثم قد أعاد السيف إلى غمده وغادر مسرعًا كالريح..

***

في اليوم التالي، عند منتصف الليل، وصل جينكي إلى بحيرة هونجو، لقد وصل متأخرًا بعض الشيء، فهناك، كان أربعة وأربعون رونين من أتباع اللورد أسانو ناغانوري يجلسون سويًا، وهو الخامس والأربعون..

حيا جينكي رفاقه بسعادة بالغة، لقد مر عام كامل على لقياهم آخر مرة، تبادلوا التحيات والضحكات، ولم يقطع ذلك كله إلا وصول الشاب الملثم، الذي علم جينكي أنه ذهب لبقية الرونين وقام بإرشادهم إلى مكان اللقاء كما فعل معه تمامًا، خلع الفتى لثامه، ليتعرف عليه الجميع، بالفعل هو الابن

الأكبر لأويشي، والذي أتم الستة عشر ربيعًا، وقبل أن يسأل جينكي: أين أويشي..

ظهر القائد الحكيم على جواده من خلف نجله، ليهب الرجال واقفين جميعًا وهم يرددون: أويشي، أويشي..

هبط أويشي من على حصانه وحيَّا رجاله تحية حارة، لكنها لا تخلو من الجمود السائد بين الساموراي، والذي تعاظم بعد موت أسانو..

بعد تبادل التحيات، قال أويشي بنبرته التي لم تتغير: لقد انقضت المدة التي اتفقنا عليها، مر عام منذ أن تعاهدنا على أن نصبر لعام قبل الثأر لسيدنا الراحل، أسانو ناغانوري، لكن وكما تعلمون، لم يكن عامًا للنقاهة أو الارتياح، لقد كان عامًا عسيرًا علينا جميعًا، حيث عشناه بلا شرف في نظر الجميع، كما كان مثقلًا بالكثير من المهام لتشتيت كيرا وجواسيسه لإقناعه بأنه آمن تمامًا، والآن، بعدما مر العام وانقضى، لقد نفذت مهمتي أنا ونجلي على أكمل وجه، تظاهرت بالسكر والعربدة، وابتعدت عن زوجتي وأسرتي، بينما اختفى نجلي عن الأنظار تمامًا، وأدَّى دوره بإرسال الإشارة لكم في الوقت المناسب..

ماذا عنكم؟ فلتخبروني بما أنجزتموه..

بعد تلك الكلمات، تناوب الرجال الخمسة والأربعون بالإدلاء بما لديهم، البعض صرَّحوا بأنهم عملوا كتجار، واندسوا داخل البعثات التي تتعامل مع قلعة كيرا، دخلوها مرات عدة، ودرسوا وحفظوا تفاصيلها، وتفاصيل حراستها قدر ما استطاعوا..

والبعض عملوا كمزارعين في أراضٍ متفرقة إلى جوار القلعة، وقد اهتموا بمعرفة مواعيد نوبات الحراسة وتفاصيلها، عدد الحراس على كل حائط، نقاط القوة ونقاط الضعف، وغير ذلك من معلومات مجدية..

توالى الرجال على إلقاء ما بجعبتهم من معلومات أسرَّت أويشي وجعلته متيقنًا من أنهم قادرون على الثأر لسيدهم، إلى أن أدلى جينكي بدلوه، وهو ما زاد من قوة السبعة وأربعين رونين بمقدار عظيم..

قال جينكي: لقد عملت كبنّاء يا سيدي، وبعد أربعة أشهر، التحقت بالعمل مع البناء الذي كان مشرفًا على بناء قلعة كيرا..

تفاجأ الحضور جميعًا، ودبت الحماسة في قلوبهم أكثر وأكثر..

أكمل جينكي: لقد تزوجت من ابنته بعد ثلاثة أشهر من

العمل معه، ذلك لكسب ثقته أكثر وأكثر، ومنذ شهر واحد فقط، طلبت منه خرائط القلعة كاملة لأتعلم مما أنجزه بها، وبالطبع لم يبخل الرجل على زوج ابنته الذي يعاملها معاملة طيبة..

بعد ذلك أخرج جينكي خريطة ما من سترته وقال: قبل إعادة الخريطة، قمت بنقلها كاملة، والآن، ها هي قطعتكم المنقوصة، لنطعمها بالمعلومات التي جمعتموها، ونكمل الأحجية، ونقضي على كيرا..

ما إن أنهى جينكي ما قاله، حتى هب أويشي من مجلسه، وأخرج سيفه، ونطق عهده بالثأر لأسانو ناغانوري، ثم غرس سيفه بالأرض، كرر الرجال ما قاله أويشي، لكن دون غرس السيوف، لأنهم لا يمتلكون سيوفًا من الأساس..

أخبرهم أويشي أنهم سيقضون اليومين القادمين في التنقل بين القرى المحيطة المشهورة بصناعتها للسيوف، للحصول على ما يحتاجونه من معدات، أما الآن، فحان وقت وضع الخطة..

وبينما يتأهب الجميع لوضع الخطة، داعب ابن أويشي جينكي حينما قال له: سأخبر زوجتك بغرضك للزواج منها، لابد أنها ستحزن..

ابتسم جينكي قبل أن يجاوب بصدق: أنا أحبها، أحبها حبًّا جمًّا، لا تقلق، لن تحزن..

ابتسم الشابان، ثم أعارا انتباههما للبقية، وشرع السبعة وأربعون رونين في وضع الخطة التي طالما انتظروا تنفيذها، خطة الثأر من كيرا يوشيناكا، من أجل أسانو ناغانوري.

***

في الرابع عشر من شهر ديسمبر بعام 1702 م، تقابل السبعة وأربعون رونين مرة أخرى في هونجو القريبة من ادو، هناك، قام أويشي ورجاله بخط قصتهم وبصموا بدمائهم وأسمائهم أسفلها، ثم أرسلوا أحد الرونين الشباب إلى مقاطعة أكو، لإخبار أهل المقاطعة بقصة الرونين الذين سينتقمون لسيدهم الراحل..

بعد ذلك، تسلل بعض الرونين إلى جيران كيرا، وقاموا بتنبيههم والتنويه عليهم بعدم الخروج من منازلهم إطلاقًا، وبمجرد أن فرغوا من ذلك، تجمع السبعة وأربعون رونين كاملين ومسلحين بالسيوف والحبال والرماح وغيرها، حول أسوار قلعة كيرا لتنفيذ خطتهم تحت الثلوج المتساقطة..

بهدوء ورشاقة، تسلق بعض الرونين أسوار القلعة، وببراعة هزموا جنود الحراسة الليلية بقلعة كيرا، وقاموا بتقييدهم،

بينما انتظر باقي الرونين لسماع إشارة الهجوم المتفق عليها، البعض منهم ينتظر للهجوم عبر البوابة الرئيسية، والبعض عبر النقطة الخلفية الكائنة بالحائط الغربي للقلعة، وما إن سمعوا دق الطبول، حتى انطلقوا كالسيل الجارف مهاجمين القلعة ومباغتين حراسها من الداخل ومن الخارج..

كان أغلب الساموراي الخاصين باللورد كيرا يغطون في نومهم، تاركين لجنود الحراسة الليلية أمر حماية القلعة، لم يتمكنوا من تدارك أنفسهم ومواجهة جنود أويشي المندفعين كالأسود الضارية التي تشتهي الطعام والشراب، طعامها القتل وشرابها الدماء، أغلب جنود القلعة قُتلوا دون عناء يذكر، والبعض هرع يركض في الجليد دون أحذية محاولين صد هجوم جنود أويشي، لكنهم قُتلوا بسهولة أيضًا، ليتبقى بعض الصامدين في معركة محتدمة، انتهت في النهاية بانتصار أويشي ورجاله انتصارًا عظيمًا..

بعد ذلك انتقل رجال أويشي للجزء الأهم والذي مكثوا كل هذه المدة بانتظاره، وهو قتل كيرا، لكن لا أثر للورد كيرا يوشيناكا داخل قلعته..

قلب أويشي وبعض رفاقه القلعة رأسًا على عقب محاولين إيجاد كيرا، لكن دون جدوى..

لكن من انتظروا عامًا كاملًا وتحملوا حياة مهينة من أجل

الأخذ بالثأر، من هاجموا القلعة وهم يعلمون أن الموت قد يكون جزاءهم من الشوغون، لن تفتر عزيمتهم بتلك السهولة ولن ينال اليأس منهم..

بعد ساعة كاملة من جهود البحث المضنية، عثر أويشي على رجل مذعور لا يرتدي سوى ملابسه الداخلية في الحظيرة بين أكوام الفحم، تحقق أويشي من أن هذا الجبان هو كيرا بواسطة الندبة التي تركها سيده الراحل أسانو على وجه كيرا ورأسه عندما هاجمه في بلاط الشوغون، وهنا، جثى كيرا على ركبتيه وأخرج السيف نفسه الذي قام أسانو باستخدامه حينما نفذ السيبوكو، ثم أتاح الفرصة لكيرا ليموت بنفس الطريقة الشريفة، لكن كيرا لم يرد وواصل الارتجاف..

أدرك أويشي أن كيرا ليس هذا الرجل الشجاع الذي يقوم بتنفيذ السيبوكو على نفسه، وبحركة سريعة طال انتظارها، أشهر أيوشي السيف وقطع رأس كيرا يوشيناكا، وأوفى بقسمه لسيده الراحل، أسانو ناغانوري..

حمل أيوشي رأس كيرا ونظفها من الدماء والفحم، ثم خرج بها في وسط القلعة، ورفعها عاليًا في الهواء وهو يصيح: من أجل اللورد أسانو..

تعالت الصيحات وسط رجال أيوشي المنتصرين وعمَّت

البهجة على الجميع، بعد ذلك بدأ أيوشي في تفقد رجاله، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة.....

خمسة أربعون، وبأيوشي يصبح العدد الكلي ستة وأربعين، ستة وأربعون محارب لم ينقص منهم واحد في هذا الهجوم على قلعة محصنة كقلعة كيرا، بالعزيمة والإخلاص والولاء، باحترام القسم والشجاعة، انتقم السبعة وأربعون رونين لسيدهم دون أن يصاب أي منهم سوى جروح يسيرة..

***

الرونين السابع والأربعون كان قد أتم مهمته كما ينبغي، أخبر أسرة أسانو بأن الرونين ينتقمون للسيد الراحل، كما شاعت الأخبار عن السبعة والأربعين محارب كالنار في الهشيم، هرع الناس من شتى البقاع لتقديم التهاني والمباركات للجنود الذين حافظوا على عهدهم لسيدهم...

خرج أيوشي يحمل رأس كيرا بيده، ومن خلفه رجاله في صفين طوليين، ثم قطعوا جميعًا الطريق وسط الناس المتجمهرين حولهم من الجانبين، والذين لا يتوقفون عن إبداء احترامهم وتبجيلهم لهؤلاء المحاربين، انتهى طريق أويشي ورجاله بمعبد سينجاكوجي، حيث دفن سيدهم أسانو ناغانوري، وضع أيوشي رأس كيرا والسيف الذي قطعت به أمام قبر أسانو ثم انحنى وقال: سيدي، يمكنك

الآن أن ترقد بسلام، لقد ثأرنا لك.

وبعد ذلك، قام الرونين بتسليم أنفسهم لجنود الشوغون.

***

لاقت قصة السبعة والأربعين رونين تعاطفًا شعبيًّا غير مسبوق في اليابان، مما وضع الشوغون في حرج، فمن جهة شعب اليابان والشوغون بنفسه يتعاطفون مع الرونين وقصتهم، ومن جهة أخرى فإن القوانين في الامبراطورية مقدسة، ولا يمكن خرقها أو التغافل عنها..

تم تقسيم الرونين إلى أربع مجموعات، وتم إيواؤهم بواسطة أربعة من الدايميو المتعاطفين معهم، حتى تقرر حكومة الباكوفو (الحكومة العسكرية) في شأنهم..

وعلى الرغم من رغبة الناس والدايميو والشوغون نفسه في العفو عن الرونين، إلا أن الشوغون قد قرر أن حكم الباكوفو لا ينبغي إبطاله، وعليه، فقد أُرسل الستة والأربعون رونين - الذين قاموا بتسليم أنفسهم - إلى الإعدام..

في حضرة الشوغون، تحدث أويشي قائلًا: سيدي، بعدما خرجنا من قلعة اللورد أسانو وأعلننا انصياعنا لحكم الشوغون، قطعنا على أنفسنا عهدًا بالثأر له، ومذ حينها، كنا نعلم جزاء ما سنقوم به تمام العلم، أنا ورجالي يا سيدي

اخترنا الموت بكامل إرادتنا من أجل الوفاء بقسمنا لأسانو ناغانوري، وسلمنا أنفسنا بشرف، لذا، كل ما أطلبه من جلالتكم، هو ترك هؤلاء الرجال يموتون بشرف وكرامة.

صمت الشوغون لبرهة ثم قال: لقد أمرتكم يا أيوشي بنسيان الثأر لسيدكم نهائيًا، ولم تمتثلوا للأوامر، ولذلك قررنا إعدامكم، لكن، نظرًا لجهودكم في حماية مقاطعة أكو، ولبسالتكم في الوفاء بعهدكم لسيدكم، لقد منحناكم حق الموت بشرف، بتنفيذ السيبوكو..

واصل أيوشي انحناءه وأعرب عن خالص شكره للشوغون..

***

جاءت زوجة أيوشي -التي كانت قد نفذت أوامره بالتظاهر بالطلاق بينهما- لتوديع زوجها ونجلها ذي الستة عشر عامًا، وجاءت زوجة جينكي رفقة أبويه لتوديعه، كما ودع باقي الرجال ذويهم، ومن ثم، نفذوا السيبوكو على أنفسهم .. تاركين إرثًا يتمثل في قصة من أروع القصص المضروبة في الوفاء والولاء والإخلاص، مات الستة والأربعون سيبوك، وتم دفنهم إلى جوار سيدهم أسانو ناغانوري، كما دفن إلى جوارهم هذا الساموراي الذي ركل أيوشي قبل ذلك في مقاطعة ساتسوما، ففور علمه بما فعله الرونين، لم يسامح نفسه وقتل نفسه للتخلص من العار الذي لحق به بعدما أهان

أيوشي...

أما الرونين السابع والأربعون، فاختلفت المعلومات حول هذا الشاب، لكن أغلبها وأقواها يشير إلى أنه قد عاد إلى ادو، ونال عفو الشوغون لأنه لم يشارك في القتال، وعاش حتى الخامسة والثمانين من عمره..

بعد تنفيذ السيبوكو من قبل المحاربين، وتفاديًا للغضب الشعبي، أمر الشوغون بإعادة لقب اللورد أسانو لعائلته، كما أعاد لهم عشر ممتلكات أسانو مرة أخرى..

***

على الرغم من بعض الاختلافات بين المصادر التاريخية، إلا أن قصة السبعة والأربعين رونين صارت من أشهر القصص في تاريخ اليابان، ومن أهم الأمثلة على الالتزام بالبوشيدو وتطبيقه، تناقلتها العديد من المسرحيات والأعمال السينمائية، كما أصبحت تشكل ركنًا أصيلًا من التراث الياباني العريق، حتى أن السياح من جميع أنحاء العالم لا زالوا يذهبون إلى قبور هؤلاء الرجال في الرابع عشر من ديسمبر على وجه التحديد...

***

تشير بعض المصادر التاريخية إلى أن الشوغون قام

بإيقاف تنفيذ السيبوكو في اللحظة الأخيرة، وأعفى عن نجل أيوشي البالغ من العمر ستة عشر عامًا، تكريمًا لوالده الذي طالما كان مخلصًا.

***

عودًا حميدًا يا صديقي! تمالك نفسك والتقط أنفاسك، أنت على قيد الحياة، لا لا لم تمت، ألم أقل لك: إن قواعد كوكوريا ستتغير هذه المرة للغضب؟ لِم لَم تصدقني؟ أنا لا أكذب عليك، بل في الحقيقة، لقد كذبت عليك مرة واحدة، عندما قلت لك: اسبقني هذه المرة وسأنضم إليك، أنا لم أنضم إليك في رحلة اليابان، بل كنت وحدك تمامًا، ولهذا السبب قتلوك! لذا حاول ألا تثير غضب كوكوريا مجددًا.. اتفقنا؟

لم تتجهم هكذا؟ اعذرني يا صديقي، حقًّا أنا آسف، لكنني لا أملك من أمري شيئًا، تلك أحكام كوكوريا، وجميعنا واجب علينا التنفيذ والطاعة، تمامًا كما فعلت كساموراي تجاه عهدك للورد أسانو، وعلى كل، الآن أنت هنا، أمدتك كوكوريا بروح إضافية..

سأتركك تستريح قليلًا هذه المرة، ومن ثم نعاود كرتنا، لكن قبل أن أتركك، ينبغي على تقديم نصيحة مهمة لك، تمسَّك بهذه الروح التي منحتها لك كوكوريا هذه المرة، أنا لا أضمن لك الحياة إن أضعت روحك مرة أخرى، وصدقني سأحاول

التواجد معك مجددًا، فلنأمل أن تغفر لك كوكوريا زلتك الأولى....

***

ما أخبارك الآن يا صديقي؟! لابد أنك قد تحسنت، لقد تركت لك الفرصة الكافية لذلك..

لا تتعجب، أعلم أن اختفائي وظهوري على حين غرة يصيبك بالشك، لكن كوكوريا أكبر من هذه الغرفة التي تجلس فيها دائمًا، كما أن لي أصدقاء آخرين، والعديد من الأشخاص المرموقين، أذهب إليهم وأتابع ما يجري معهم، ثم أعود إليك يا عزيزي..

أرجو أن حالتك المزاجية قد تحسَّنت للحد الذي يسمح لك بتقبل الخبر الذي سأنقله لك، لكن ليس الآن، بعد قليل..

هلا التقطت النرد من أجلي؟

***

تلتقط النرد، وترميه بقوة، ثم تنظر إلى الشاشة من تلقاء نفسك!

جيد، جيد جدًّا، لقد اعتدت على كوكوريا في زمن قياسي، لذلك أنت من أقرب الأشخاص لقلبي داخل عالمنا السيّار رغم

حداثة صداقتنا..

تعرض الشاشة مقطعًا لساحة قحلة، تملؤها الدماء والأشلاء، تقترب الكاميرا أكثر لتسلط الضوء على سارية بوسط الساحة تحمل علمين، يشتركون في اللونين الأحمر والأبيض، ويختلفون في الأسود والأخضر، وكل منهما يحمل كلمات على لونه الأبيض، أعلى السارية، يوجد جندي يحاول نزع أحد العلمين، وأسفل السارية، جندي آخر يتأهب لإطلاق النار على الأول، لكن في لحظة خاطفة، تأتي قذيفة قوية لتطيح بالجميع، السارية، العلمين والجنديين..

تنطفئ الشاشة كأنها تعلن الحداد، ثم تضيء مرة أخرى، لكنها تطل على بقعة مختلفة تمامًا، مساحة واسعة من الأرض في شمال قارة أمريكا الشمالية.

***

والآن، حانت لحظة الخبر الصادم، لكن لابد أن تتقبله بصدر رحب، فهذا لمصلحتك أولًا، ترى كوكوريا أنك لم تتعاف بالشكل الكامل لتصبح مؤهلًا لمتابعة الرحلات، أي: أن روحك الجديدة لم تستقر بداخلك، وتحتاج المزيد من الوقت، لذا، لن تنضم إلى هذه الرحلة، فقط ستجلس على كرسيك وتتابع ما تعرضه الشاشة بترقب وتركيز، ولعلها طريقة تعلمك بها كوكوريا مدى أهمية الروح التي تمتلكها، حتى لا تهدرها بلا

اكتراث.

***

تنويه هام: جميع المعلومات الخاصة بموت أسانو وانتقام الرونين من كيرا وأعدادهم حقيقية كما وردت بالمصادر التاريخية، كان هناك أحد الرونين الذي قام بالزواج من نجلة بناء القلعة بالفعل، لكن لم يكن اسمه جينكي، أي: أن المعلومات الخاصة بجينكي أوساني فيما يخص اسمه وعمره ليست تاريخية..

* اختلفت القواعد بعض الشيء هنا، فأنت يا عزيزي القارئ لعبت دور جينكي، الذي كان اسمه وهميًا، لكن دوره حقيقي، أنت تعلم طبعًا، تلك رغبات كوكوريا!

الفصل الرابع
هل للروح أهمية؟

الزمان: بدءًا من 1980م.

المكان: العراق، ايران، كندا.

***

* كندا، فانكوفر، داخل مبنى فخم الطراز وهادئ الأجواء *

- سلام

- سلام

- أشعر أنك لست كنديًّا، وعندما ألقيت عليك السلام وجاوبته تأكدت من ذلك، أليس ذلك صحيحًا؟

= بلى، هذا صحيح، أنا إيراني، وحينما سمعت لكنتك الفارسية شعرت بالابتهاج.

وما أن سمع الرجل هذه الكلمات، حتى شرد ذهنه، كأنه تلقى ضربة موجعة على رأسه، أو كأنه سقط في غياهب الذكريات...

***

في سبتمبر من العام 1980، داخل إحدى محافظات دولة العراق، أغلق « نجاح» مطعمه المتواضع، وسلك طريقه إلى أحد المباني المهجورة حيث سيقابل شخصًا عزيزًا على قلبه..

وصل نجاح في موعده ليجد فتاة حسناء في انتظاره، تعانقا عناقًا حارًا وتبادلا القبلات الخفيفة، بعد ذلك التقط نجاح طفلًا رضيعًا من يد الحسناء وأخذ يتحسس رأسه ويداعبه مبتسمًا، لم يكن نجاح ليمل من مشاكسة هذا الرضيع حتى وإن ظل يفعل ذلك لساعات متواصلة، لكن ما قطع عليه متعته هذه كان صوت الفتاة الذي يعبر عن حزنها الدفين..

- وأما بعد؟

- تلاشت ابتسامة نجاح وترك الرضيع ليلتفت إلى أمه..

= ماذا تريدين؟

- أسنظل على هذه الحالة؟ حتى بعدما أنجبت؟

= تعلمين تمام العلم أن هذا الوضع يؤرقني بقدر ما يؤرقك، ولكن ما باليد حيلة، كان من المفترض أن هذا هو الوقت المناسب لإعلان زواجنا، لكن القدر كان له رأي أخر، ماذا عساي أن أفعل؟

- وإلى متى؟

- شهران، فقط شهران اثنان، ننتهي من هذه الحرب، ونقوم بإعلان الزواج كما كنا نخطط..

- هذا ليس معقولًا، لم عليك الذهاب للحرب أصلًا؟ هل فرغ العراق من رجاله ليجند شاب في الثامنة عشر من عمره؟!

= بالله عليك، لست أنا الشخص الصحيح لتوجيه سؤالك، أنا أعيش حياة سعيدة، لدي عملي الخاص، وزوجة رائعة وطفل أود تربيته بعد إعلان زواجي من أمه، هل أنا من اختار الذهاب للحرب؟ أنت تعلمين جيدًا ماذا سيحدث إن تخلفت عن الذهاب.

ترقرقت الدموع على خدي الفتاة الجميلة، لينسى نجاح همه ويحاول مداعبتها..

= ثم ما معنى هل فرغ العراق من رجاله ليجند شبابه؟ ألا تريني رجلًا؟ هذا الطفل الجميل الذي يشبه أباه كيف جاء إلى الدنيا؟

ابتسمت الحسناء ابتسامة لم تخلُ من الحزن، ثم عادت - بعدما تكاثرت دموعها وتسارعت – لتقول:

- أنا لا أجيد فهم السياسة، ولا أكترث أصلًا، أبي يخرج

للعمل يوميًا حتى يملأ بطوننا، وزوجي يكافح في مطعمه لنفس السبب، لا أريد سوى العيش، وأن نعلن زواجنا ونربي طفلنا سويًا، ماذا إن لم تعد لا قدر الله، كيف سأعيش وحدي؟

= ثقي بي، ولا تزيدي من صعوبة الأمر على قلبي، ستنتهي الحرب في شهرين على الأكثر بإذن الله، وأعود لنمارس حياتنا على النحو الذي أردناه..

- ولم قامت تلك الحرب اللعينة من الأساس؟!

جلس نجاح على الأرض وأجلس زوجته إلى جانبه ورضيعه على يده، ثم أحاط زوجته بيمناه وأسند رأسه على رأسها، وحاول أن يوصل إليها بإيجاز أسباب الحرب التي يحيط بها على حد علمه..

- تخشى حكومتنا أن الثورة الإيرانية التي انطلقت بالعام الماضي، سيكون لها تأثير على الأغلبية الشيعية داخل العراق، فيشعرون بقوتهم ويحاولون التمرد، كما أن الأوضاع بين البلدين في غاية التوتر لأسباب كثيرة أنت في غنى عن شرحها، وهذا الشهر، اتهمت حكومتنا الحكومة الإيرانية بقصف بعض المناطق العراقية على الحدود، وعليه فقام الرئيس صدام بإلغاء اتفاقية معمول بها بين البلدين تُسمَّى: اتفاقية الجزائر، ومن ثَم اعتبر مياه شط العرب جزءًا من

المياه الإقليمية العراقية، وما يلي ذلك لا يبدو واضحًا لي، لكن كل ما أعلمه، أنه يتوجب على تلبية النداء الحربي لشهر أو اثنين على الأكثر، حتى أنعم بالعيش إلى جواركما بقية عمري..

تشبثت زوجة نجاح بقميصه أكثر قبل أن يقول: يجب على المغادرة الآن، ينبغي أن أودع أسرتي قبل أن أذهب، كوني واثقة بي وتوكلي على الله، سأعود، حتمًا سأعود...

عناق حار كاد أن يكسر فيه أحدهما أضلاع الآخر، قبلات على جبين الرضيع، ثم أخرجت الحسناء صورة لها رفقة رضيعها وأعطتها لنجاح، وبدوره قبل الصورة ودسّها في قميصه، ثم همّ ليترك هذا المشهد الحزين الذي ودّع فيه زوجته ونجله، إلى مشهد آخر حزين سيودع فيه أسرته.

***

اركض اركض اركض، لا تتوقف عن الركض، هذه المرة لن يلحق بك أحد منهم، هذه المرة يجب أن تكون المرة الأخيرة، لأنك إن فشلت، ستعاقب بجرعة زائدة مما تعاقب به كل مرة، اركض اركض اركض، لا ينبغي أن توقفك الأرض بحرارتها اللاسعة حتى وإن كنت لا ترتدي حذاء، هذا ليس مبررًا، إن أمسكوك، ستلسع عقوباتهم كل جسدك، واصل الركض، لن يمنعك جوفك الخاوي من الابتعاد عنهم نهائيًا، ابتعد بقدر ما

استطعت، لا تفكر كثيرًا حتى لا تنشغل وتحيد عن هدفك، واصل الركض..

لكن، كالعادة، لا جدوى، لقد أمسكوا بي مجددًا، وعادوا بي إلى أكثر مكان أمقته وأكرهه، لقد عادوا بي إلى هذا السجن اللعين المسمى بالمنزل..

جلسة أخرى من العذاب، عنف جسدي، أذى نفسي، انتهاك لكل قواعد الطفولة، ومن ثم إلقاء آخر لجسدي الهزيل داخل غرفتي الكريهة...

هل سأتوقف عن محاولاتي؟ لا، لا وألف لا، في فجر الغد، سأعيد الكرة، يتعافى جسدي سريعًا من كثرة ما لاقاه، لقد اعتاد على الجروح والكدمات، فأصبح يجدد خلاياه بسرعة وكفاءة...

اركض اركض اركض، حدَّث « زاهد « نفسه، لقد قطعت هذه المرة ما لم تقطعه في أي مرة، لابد أنك اقتربت من التواري عن أنظارهم نهائيًا، لا تبطئ من سرعتك ولا تنظر خلفك، دقائق إضافية وستنجو منهم نهائيًا، إلى مصير آخر..

لحظة، إلى أين؟ هل تعلم أين تذهب؟ لا، لكن أينما تكون محطتي القادمة، ستكون أهون من ذلك المنزل الشنيع، وهذا الأب القاسي الذي لا يعرف للأبوة معنى، حتى وإن كان

الموت، سيدخلني الله الجنة، وكيف له ألا يدخلني وهو الرحمن الرحيم؟ وأنا طفل مسكين في منتصف عامه الرابع عشر، لم ينعم بيوم واحد هادئ في حياته، لم يُعامل كبقية الأطفال، لم يخلُ يومه من الضرب المبرح والترهيب والإهانات، حتى لا تعود إلى ذلك مرة أخرى، واصل الركض ولا تلتفت أبدًا..

متغذِّيًا على الكره، ومتخذًا الخوف كوقود، واصل الطفل زاهد الركض في ربوع الأرض، إلى أن نفذت طاقته، نظر حوله وشعر وكأنه لم يكن واعيًا لما يفعله، كأنه تجاوز بضعة ساعات وهو نائم، لكنه كان يعي تمامًا أنه لم ينم الليلة، كما لم ينم في أي ليلة داخل منزله إلا لساعات متفرقة من شدة الإعياء والمرض.

نظر حوله، وجوه لا يألفها وأماكن لم يرها أبدًا، لقد نجح في الهروب، هو الآن داخل مكان آخر من إيران، غير ذلك الذي يعرفه تمامًا، نظر إلى قدميه، فوجدهما تدميان بغزارة، لابد أنه لم يشعر بهما وهو يركض، لقد تهتكت أنسجته من الجري على الرصيف الصلب، جلس على الأرض ولا يعلم خطوته المقبلة، إلى أن رقَّ له قلب أحد المارة، فأخذه إلى منزل مجاور وقام بتضميد جرحه، وبعدما تبين قصته، أعطاه بعض الفاكهة وأخرجه خارج منزله ليواصل طريقه

المجهول، لم يعلم زاهد كيف نجح في الهروب هذه المرة، لم هذه المرة بالتحديد؟ هل لأنه قام بتغيير الميعاد الذي اعتاد الهروب فيه؟ أم أن والده قد سأم من محاولات رده، أو استنفذ طاقته في التعذيب، فتركه إلى حال سبيله؟ لا يهم، الأهم الآن أن يجيب على السؤال الصعب، إلى أين سيذهب؟..

بعد فترة ما، عن قصد أو دون قصد، سواء سعى زاهد إلى قدره، أو سعى قدره إليه، أو تقابلا في منتصف الطريق، التحق الطفل ذو الثلاثة عشر عامًا ونصف بالجيش الإيراني الذي يستعد للدفاع المقدس، وهو الاسم المعروف في إيران للحرب العراقية الإيرانية، أو حرب الخليج الأولى، لقد جندت إيران آلاف الأطفال، بمهام ووظائف مختلفة، ومنهم كان زاهد، الذي ترك الحرب ضد أسرته، ليحارب ضد العراقيين..

***

هل تكره الجيش؟

فزع زاهد من السؤال الموجَّه إليه من زميله بندر، لم يسألني هذا السؤال؟ هل يشككون في انتمائي؟ هل أرسله أحد القادة بهذا السؤال؟

- زاهد، ماذا بك؟ ألا تسمعني؟

ابتلع زاهد ريقه بصعوبة ثم أجاب: نعم نعم، أسمعك، فقط اندهشت من السؤال! بصفتي فردًا من أفراد الجيش الإيراني، لم سأكرهه؟

- لا لم يصلك سؤالي كما ينبغي، لا أقصد الجيش الإيراني تحديدًا، فكلنا أفراده، أقصد الحياة العسكرية نفسها، وحياة الحروب..

= وهل يحب أحدهم الحروب؟

لم يجب بندر، ليدع الفرصة لزاهد لقيادة الحديث مستأنفًا بقوله: أظن أن كل الأسوياء على وجه الأرض يكرهون الحروب، لكنني راضٍ تمامًا بقدرنا هذا، كل ما أرجوه أن نبتعد عن الخطوط الأمامية، وأن أنام لبضع ساعات دون أن استيقظ مفزوعًا..

- أرى أنك تطلب المستحيل تقريبًا، مهمتنا هي حفر المقابر الجماعية للجنود العراقيين، فكيف لا نكون في الخطوط الأمامية؟ كما أنك تتمنى أن تنام قرير العين وكأنك على فراشك داخل غرفتك! كيف ينام أحد الجنود وهو على أعتاب الموت في أي لحظة؟! لا سيما من لا يملكون لأنفسهم القوة اللازمة للدفاع عن النفس، مثلنا.

= أولًا، أنا لم أنم قرير العين في منزلي أبدًا، ثانيًا، لا

تضايقني احتمالات الموت أثناء نومي، فإن جاءت غارة مفاجئة وأودت بنا جميعًا، لن أشعر بذلك أصلًا، وبما أننا في وسط المعركة الدائرة، فلن يتم أسرنا مثلًا، يتم الأسر بعدما يستسلم طرف للآخر، ونحن لن نستسلم أبدًا في دفاعنا المقدس..

- إذًا وما يؤرق نومك؟

= الجثث، نعم الجثث التي أراها كل يوم، كل ساعة، وأواريها بالتراب، تأتيني كلها في منامي، أراهم واحدًا تلو الآخر...

- دعك من ذلك، بينما كنت في منزلك، لماذا لم تنم باطمئنان؟

= لا أحب الحديث حول ذلك، أنت قل لي، لماذا انضممت إلى الجيش؟

- رأى والدي أن هذا واجب مقدس، وشرف ما بعده شرف، كما أنها الطريقة المثلى التي تجعل مني أنا وأخوتي رجالًا أشداء..

= هل إخوتك يشاركون في الحرب أيضًا؟

- نعم، ثلاثتهم أكبر مني سنًا، اثنان منهم يشاركان في

كتائب المشاة، والثالث يكبرني بعام واحد وهو معنا هنا، يُدعى: علي، غدًا سأعرفك عليه..

= هل تخاف على أخيك؟

- أكثر مما أخاف على نفسي، أدعو الله أن نعود سويًّا، أو نموت سويًّا، في نفس اللحظة..

شعر زاهد بالأسى فوق أساه، كانت هذه هي المرة الأولى تقريبًا منذ أن انضم للجيش التي يتذكر فيها افتقاده لروح الحب الأسري، حنان الأم ومحبة الأشقاء..

استفاق زاهد من خيالاته الحزينة على صوت جرس الاستدعاء، سيتم استئناف المعركة، نظر إلى يديه الصغيرتين، ودعا، يا الله، ساعدني على حفر المقابر وردمها، أو خذني إليك دون أن أشعر بالألم..

قالها الطفل الذي جعلت منه الحرب كهلًا، ثم سأل زميله وهما يتجهزان: بندر، هل تتوقع أن نبتعد عن الخطوط الأمامية في يوم ما؟

أجابه بندر قائلًا: نعم، حينما نكون أشلاء مترامية..

ثم ابتسم، يا للحرب، حتى نكاتها قاسية.

رد زاهد الابتسامة لصديقه وركض خلفه، وهو عازم على

اعتبار بندر وأخيه على هما أسرته الجديدة، أثناء تقدم الجميع لشغل مواقعهم، أخذ زاهد يشغل نفسه عن الحرب حتى لا يشعر بأهوالها، فكر في أن وطنه سيكرمه فور انتهاء الحرب لصالحهم، سيكوّن أسرة، سيكون له زوجة وأطفال، وسيعامل أطفاله بكل عطف وحنان على عكس والده، وبالطبع سيظل بندر وعلي أخويه، كان يتوق لمقابلة على في صباح الغد...

لكن هذا الغد، لم يأت أبدًا...

بعدما استطاعت القوات الإيرانية التقدم لمساحة أخرى من الأرض، جاء دور زاهد ورفاقه، كانت القوات الإيرانية تقوم بقصف وتفجير الخنادق العراقية المحصنة، خندق تلو الآخر، بعدها، تهبط فرق الأطفال إلى الخنادق للتأكد من خلوها من الناجين، وإن كان هناك بعضهم، يتم قتلهم على الفور، بعدها تواصل القوات الإيرانية التقدم، وما أن تهدأ المعركة، يعود زاهد ورفاقه لتجهيز المقابر الجماعية ودفن القتلى العراقيين.

كانت هذه المهمة تحتوي على خطر كبير كباقي مهام الحرب، ففي الكثير من الأحيان، كان الجنود العراقيون الذين لا يزالون على قيد الحياة داخل الخنادق، يقومون بالتظاهر، يدعون موتهم، وفور اقتراب الجنود الإيرانيين منهم،

يقومون بتفجير أنفسهم في العدو، فمن جهة لن يقعوا في الأسر، ومن جهة أخرى ألحقوا بالعدو ما أمكنهم من أذىً، وبالتالي، كانت نجاة زاهد ورفاقه في كل مرة تعتمد على سرعة التقاطهم للناجين، والإجهاز عليهم في الحال..

في هذه المرة، وبعد هدوء المعركة، هبط زاهد ورفاقه إلى الخنادق، تفحصوها جيدًا، وخرجوا جميعهم سالمين، إلا خندقًا واحدًا، هناك، قام أحد الجنود العراقيين بتفجير نفسه داخل الخندق بمن فيه من المستكشفين الإيرانيين، ومن ضمنهم كان بندر وأخوه علي، لقد ماتا في نفس اللحظة، وبنفس الرقعة، بل إن أشلاءهما كانت وكأنها تحتضن بعضها البعض، بعدما تفتك جسداهما إلى أجزاء عدة، سقطت رأس بندر إلى جوار صدر أخيه، وفارقا الحياة سويًّا، وبذلك، فقد زاهد عائلته الجديدة قبل أن تتكون أصلًا..

احتضن زاهد رأس صديقه وهو يبكي، كانت المرة الأولى التي بكى فيها لسبب آخر غير الضرب المبرح من والده، لكن في الحرب، لا حيز واسع للمشاعر، والموت هو الاحتمال الأكبر دومًا، دفن زاهد حزنه في قلبه بعدما دفن صديقه، ونقش على الأرض بحروف صغيرة: بندر وعلي، شهداء معركة خرمشهر..

***

خرمشهر، أو المحمرة، هي مدينة إيرانية مزدهرة تقع على الضفة الشرقية لشط العرب، وتتبع محافظة خوزستان، وواحدة من أهم مدن الموانئ في العالم، بلغ عدد سكانها قبل الحرب ما يقرب من 220 ألف نسمة، أغلبهم من الأثرياء والمنتمين للطبقة العليا في المجتمع الإيراني...

بعد الثورة الإيرانية الإسلامية في عام 1979م، بدأت عناصر من جماعات عربية مناهضة للحكومة الإيرانية في التآمر في محافظة خوزستان لمحاولة الانضمام إلى العراق، وشهدت المدينة في شهري سبتمبر وأكتوبر عام 1980م العديد من أحداث التفجيرات والإرهاب وسط السكان، ووقعت في هذه الفترة أيضًا العديد من الانتهاكات على الحدود بين إيران والعراق، وتكررت هذه الانتهاكات وأحداث العنف كثيرًا لدرجة أن بعض السكان المحليين اعتقدوا أن الأيام الأولى للحرب كانت نتيجة تفاقم الاشتباكات هناك..

وبعد إعلان الرئيس العراقي صدام حسين إلغاء اتفاقية الجزائر، كان الجميع يتوقع الحرب، وعليه، قام الإيرانيون بحفر العديد من الخنادق على مشارف مدينة خرمشهر للدفاع عنها، احتوى الخط الأول على جنود نظاميين، والثاني على دبابات ومدفعية وأسلحة مضادة للدبابات...

وبالفعل، قامت الحرب واندلعت المعارك، في خرمشهر، كان

مركز القيادة الرئيسية في «المسجد الجامع» بوسط المدينة، طوال فترة المعركة، كان المسجد بمثابة قاعدة لتنظيم الدفاعات وتعزيز القوات التي نفدت منها الذخائر والطعام والماء، وقامت النساء اللاتي في الخدمة بطهي الطعام للجنود المنهكين وتوفير المأوى..

في ظهر يوم 22 سبتمبر، بدأت العراق المرحلة الأولى في عملية الاحتلال من خلال شن سلسلة من الضربات الجوية على مستوى إيران، وكان مكتب الجمارك في مدينة خرمشهر ضمن الأهداف الأولى، وأطلقت 150 سرية مدفعية متمركزة حول المدينة العراقية تنومة رشقات بكثافة، وبحلول المساء، توقفت الضربات الجوية وغرقت المدينة في الحرائق والدخان.

وانقطعت الخدمات الأساسية، مثل المياه والكهرباء، وقُتل عشرات الآلاف في الطرف الغربي من المدينة، وخصوصًا في منطقة طالقاني ومحطة السكك الحديدية وحي مولاوي..

وليلًا، تحركت 500 دبابة عراقية باتجاه طريق خرمشهر-الأحواز، وسقطت النقاط العسكرية المحيطة بالمدينة، ولكن استطاع المدافعون الإيرانيون التصدي للعديد من الدبابات العراقية باستخدام البنادق. ومع ذلك في الصباح الباكر في يوم 23 سبتمبر سقطت معظم هذه النقاط العسكرية أمام

الفرق الآلية العراقية. ولكن ذلك منح الإيرانيين وقتًا كافيًا لتجهيز الدفاعات في المدينة نفسها..

بعد ذلك، تقدم العراقيون لحصار مدينة خرمشهر على شكل هلال، وتضمن اليوم الثالث والرابع من الاحتلال محاولة القوات العراقية إحكام سيطرتها على طريق خرمشهر-الأحواز، ومع ذلك واجهت القوات العراقية عدوًّا عنيدًا؛ حيث عادت القوات الإيرانية باستمرار مسلحة بالمدافع والبنادق، وعلم الرغم من الخسائر الفادحة في الصفوف الإيرانية خلال هذه المعركة، إلى أن المعركة قد ساهمت في إعاقة تقدم القوات العراقية، لبعض الوقت..

لكن بحلول 30 سبتمبر، نجحت القوات العراقية في إخلاء معظم الخنادق والسيطرة على المنطقة المحيطة بالمدينة؛ حيث فصلتها عن كلٍّ من مدينة عبادان وباقي محافظة خوزستان. وبتحقيق هذه الانتصارات، وقفت القوات العراقية على أبواب مدينة خرمشهر..

بعد ذلك، دخلت قوة عراقية مدينة خرمشهر للمرة الأولى، عن طريق الميناء الواقع في أقصى الجنوب، وتصدَّى لهذه القوة عدد من المدافعين التابعين للحرس الثوري، وتعرض ثمانية منهم للقتل، ومن ثَمَّ تحركت دبابات ووحدات آلية من الفرقة الثالثة بالجيش العراقي إلى داخل المدينة في وقت

لاحق من نفس اليوم، وانتقلت قوة لاحتلال مجزر، وأخرى للاستيلاء على محطة السكك الحديدية، وثالثة لتأمين ثكنات في منطقة طالقاني.

وانتظرت قوات الحرس الثوري القوات العراقية في هذه المواقع بمدافع آر بي جي وزجاجات مولوتوف، وتوقف الهجوم العراقي في الضواحي عندما اصطدم بدبابات تشيفتن بريطانية الصنع، ونجحت الهجمات المضادة المحلية التي شنتها فرق الحرس الثوري المضادة للدبابات في إعادة القوات العراقية من نقاط عديدة، ولاحقًا، أشارت التقارير إلى وقوع اقتتال داخلي بين الوحدات العراقية، وهذه علامة ضعف ظهرت داخل الصفوف العراقية..

وعلى الرغم من أن حجم قوة الدبابات العراقية الضخم كان فعالًا في مواجهة الفرق المضادة للدبابات، إلا أنها عندما واجهت المدرعات الإيرانية، توقفت الهجمات، وبعد قتال عنيف، احتلت القوات العراقية المجزر ومحطة السكك الحديدية، ولكنها انسحبت إلى مواقع سابقة في ضواحي المدينة..

كانت هذه هي المرحلة الأولى من معركة خرمشهر، التي دارت أثناء الحرب الإيرانية العراقية، وتبعتها مرحلتان أخرتان، انتهت باحتلال العراق لمدينة خرمشهر احتلالًا

كاملًا، وظلت المدينة تحت السيطرة العراقية حتى شهر مايو 1982، عندما قام الإيرانيون بعملية بيت المقدس لاستعادة محافظة خوزستان..

بين تلك المراحل، كانت القوات الإيرانية تحاول على استحياء التقدم داخل المدينة، وتفجير العديد من الخنادق التي تم الاستيلاء عليها من قبل العراقيين، أثناء تلك التفجيرات مات بندر رفقة علي، وفي الجهة المقابلة، كان نجاح داخل أحد الخنادق العراقية بعدما شن نجاح هجومًا مع فرقته، عادوا سريعًا إلى خندقهم، بالداخل، كانوا على قدم وساق، يستعدون للضربة القادمة، ففي الهجوم الأخير حققوا تقدمًا ملحوظًا ونجاحًا ملموسًا، إلا أن الصفوف الإيرانية التي تقاتلهم حصلت على مدد من فرقة إيرانية أخرى، وفي الوقت ذاته كادت الذخائر العراقية أن تنفذ، هنا، قرر العراقيون العودة إلى خنادقهم والتزود بالذخيرة والخروج لمواصلة القتال، لكن مصائرهم الآن مرهونة في يد الإيرانيين، فإن تراجع الإيرانيون للتزود أيضًا فقد تلاشى الخطر، أما إن تقدموا بعون الفرقة التي انضمت إليهم، فقد يتم تفجير الخنادق العراقية في غضون دقائق، لذلك، كانت كل الخنادق العراقية في هذه الرقعة من خرمشهر تعج بالجنود الذين يتزودون بالذخائر للخروج سريعًا ومقابلة القوات الإيرانية قبل أن تتمكن منهم داخل الخنادق، لكن،

سبق السيف العذل، بدأت أصوات القصف الإيراني تدوي عاليًا، وفي دقائق معدودات، كانت الخنادق العراقية الموجودة في هذه المساحة قد تم تفجيرها بالكامل..

في خندق نجاح، قضى كل الجنود نحبهم، كل من بداخل الخندق قد ماتوا، إلا نجاح، لقد كان الناجي الوحيد من القصف الإيراني للخنادق، لكنها نجاة ليس لها قيمة، فبعد لحظات، سيهبط الإيرانيون إلى الخندق للقضاء على من تبقى بداخله، فكر نجاح في الحلول المطروحة أمامه، أو لنقُل: السيناريوهات المرسومة أمامه؛ لأنها ليست حلولًا، بل أقدارًا رسمت إليه رغمًا عنه، إما أن يُقتل برصاصات العدو، أو يفجر نفسه في العدو إن استطاع ذلك أصلًا، في هذه اللحظات، نسى نجاح الإصابة البالغة التي أصابت ساقه، وأخذ يتذكر زوجته وطفله الرضيع اللذين ينتظران عودته من أجل إعلان الزيجة وتربية الطفل، ثم انتقل إلى أسرته، وبالأخص أمه، في ذلك الوقت بالتحديد، شعر نجاح بسخونة دموع أمه التي سقطت على خديها وخده حينما عانقته، وتشبثت برقبته وهي تدعو بكل ما أمكنها نفسها المتهدج، تذكر أخاه الأكبر وهو يربت على كتفيه..

لكن صوت الإيرانيين قطع عليه أفكاره، كان هبوط الإيرانيين أسرع بكثير مما توقعه نجاح، فكر أسرع، فرص

النجاة شبه منعدمة، تكمن فقط في ألا يتم اكتشافه، وألا يتم ردم هذا الخندق فوق جثته، ومن ثم يخرج الإيرانيون من الخندق، وينتظر نجاح اللحظة التي سيعاود فيها العراقيون التقدم، كانت الفرصة معقدة، بل في غاية التعقيد، فإن حدثت معجزة وتغافل عنه الإيرانيون، ليس من الضروري أن تعاود القوات العراقية التقدم، وإن حدث وتقدموا، من الوارد جدًّا أن يقوموا هم أنفسهم بقصف هذا الخندق الذي أصبح داخل مساحة إيرانية، لكن، هل هناك سيناريوهات أخرى؟ قطعًا لا، لذا اتخذ نجاح قراره بالتظاهر بالموت، لكنه لن يفجر نفسه في النهاية، فإن كانت لديه فرصة ولو ضئيلة للنجاة، فليتشبث بها من أجل كل من ينتظرون عودته..

***

على الجانب الآخر، كان زاهد قد تلقى التعليمات مع رفاقه، بأن يهبط إلى كل خندق جندي واحد، والبقية تتنظر عودتهم بعد عشرة دقائق، إن خرج الجندي من خندقه سالمًا، يهبط البقية لتنفيذ باقي المهام بتجميع الذخيرة وما إلى ذلك، إن لم يخرج، فبالتأكيد سيتم تفجيره بالداخل، ويموت وحده أفضل من أن يموت مع رفاقه، فكل جندي سيشكل فرقًا مهمًا للجيش الإيراني، هذا ما تم تلقينه لهم..

ولسوء الحظ، وقع الاختيار على زاهد ليهبط إلى أحد

الخنادق، كان الطفل الإيراني يتمنى أن يكون من المنتظرين بالخارج، لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن...

على الرغم من أن زاهد كان لا يهاب الموت في بداية الحرب، لكنه بعدما رأى صديقه بندر على الأرض، أصبح أشد خوفًا وتوجسًا، لكنه كان بارعًا في إخفاء كل ذلك بداخله، إلا حينما ينام، فلا تزال الكوابيس توقظه يوميًّا، وتعاظم قدرها بعد حادثة بندر وعلي، ففي كل ليلة، كان يرى جثث العراقيين، ورأس بندر وصدر علي..

بكشاف صغير بيده، بدأ زاهد في النزول للخندق وهو يدعو: يا الله، إما النجاة أو الموت، لكن بلا ألم، بلا ألم يا الله..

***

في آخر الخندق، كان نجاح يستعجب مما يسمعه، فبعدما سمع الكثير من الأصوات الإيرانية في البداية، خفتت كل الأصوات، كأنها لم تهبط إلى الخندق وظلت خارجه، بل ابتعدت عنه قليلًا أيضًا!

ما هذا؟ هل تلك هي العناية الإلهية التي دعت له أمه بأن تلزمه؟

لكن ما لا يعرفه نجاح أن تلك الدقائق الهادئة كانت هي اللحظات التي تلقى فيها الإيرانيون التعليمات بأن يهبط

جندي واحد إلى كل خندق...

انتظر نجاح لدقائق أخرى، لا جديد، صمت، صمت، الكثير من الصمت، صمت..

كان نجاح مستلقيًا على بطنه طامرًا وجهه في التراب ليساعده ذلك في إخفاء أنفاسه والتظاهر بالموت، لكن بعدما تأكد من خلو الخندق قرر إعفاء نفسه من أعباء التظاهر ليحتفظ بطاقته كاملة إلى حين نزول الإيرانيين، عدل من وضعية وجهه قليلًا ليرتكز خده على الأرض، وبدأ يئن من الضرر البالغ الكائن في ساقه والذي يؤلمه بفظاعة...

بعدما تكرر أنينه لمرتين بالضبط، سمع نجاح صوت شد أجزاء بندقية، مما يعني أن صاحبها يستعد للإطلاق، يا رباه، لقد سمع أحدهم صوت الأنين..

لكن يا ترى، هل من سمع هو جندي إيراني هبط خلسة دون أن يشعر نجاح، أم جندي عراقي ما زال على قيد الحياة وسيحاول الهرب؟؟

تلقائيًا، توجهت أفكار نجاح إلى الاختيار الثاني، فخندقهم كان آخر الخنادق، وبالتالي فمن المنطقي أنهم بدأوا بالخنادق الأولى، وبما أنه لم يسمع أحدهم وهو يهبط، فلابد أن مَن شد أجزاء السلاح هو جندي عراقي رفيقه، لكن في نفس الوقت،

من الممكن أن نجاح قد غرق في تذكر أمه وزوجته، ولم يشعر بالإيرانيين الهابطين، خصوصًا وأنه يدير وجهه إلى الجهة الأخرى فلا يرى من بخلفه، لذا، قرر نجاح عدم المخاطرة، والثبات بمكانه، خلال كل لحظات التفكير تلك، كان صوت أقدام حامل السلاح يتقدم من نجاح شيئًا فشيئًا، إلى أن حدث ما خلع قلبه أكثر من كل ما رآه بالحرب، أحدهم وضع يده على كتفه وجذبه إلى الخلف لينظر إليه..

هنا، وجد نجاح نفسه ينظر إلى جندي بملابس إيرانية، وعلى الفور أدرك هلاكه، شل عقله عن التفكير، لكن لسانه أخذ يركض كجواد بلا فارس: الله يسلمك، الله يخليك، لا تقتلني، الله يسلمك الله يسلمك، الله يخليك، لا تقتلني، الله يسلمك..

لم يفهم الجندي الإيراني أيًّا مما يقوله نجاح، لكنه بالتأكيد أدرك أنه يقوم باستعطافه، هنا أشار الجندي الإيراني بسبابته أمام شفتيه طالبًا من نجاح الصمت..

صمت نجاح، وانتظر لحظة موته، بما أنه لم يفجر نفسه، فالبروتوكول الطبيعي اتخاذه، أن يقوم الجندي الإيراني بتفتيشه أولًا ليتأكد من أنه لا يمتلك أي متفجرات، هذا لأنهما على مقربة من بعضهما البعض، فإن أطلق النار على المتفجرات التي يمتلكها فالأضرار قد تكون وخيمة، وما أن

ينتهي الإيراني من التأكد أن نجاحًا لا يمتلك أية متفجرات، سيقوم بإطلاق الرصاص عليه، ومن ثَم أخذ الذخائر ومتابعة العمل...

وبالفعل، بدأ الإيراني في تفتيش نجاح، وأول ما عثر عليه هو كتاب مغلف، فتح الجندي الكتاب ليجده نسخة من القرآن الكريم، أشار الجندي إلى نجاح بالكتاب الكريم، فشرع نجاح في التحدث على الفور بلغة أخرى غير العربية والفارسية ليفهمه الجندي، فقال بلغة أجنبية: إنه لأمي، أعطته لي كي يحميني..

لكنه لا يعلم هل فهم الجندي ما يقوله أم لا؟!

تفحص الجندي الإيراني الكتاب ليجد بداخله صورة ما، نظر فيها، إذ هي صورة لفتاة حسناء وطفل رضيع، علم الجندي الإيراني أنها لأسرة نجاح، أعاد الجندي الصورة إلى داخل الكتاب الكريم ثم وضعه خلفه، وهنا تأهب نجاح لاستقبال النار، فبالتأكيد لم يكن الإيراني ليطلق النار على القرآن الكريم، والآن هو جاهز تمامًا للقضاء على حياتي، وبالتالي، فإن لسان نجاح بدأ في التحرك تلقائيًا مرة أخرى: الله يسلمك الله يخليك، لا تقتلني..

أعاد الجندي الإيراني الإشارة إلى نجاح بالصمت، ثم أخرج من جيبه مسكنًا قويًا للآلام وأعطاه إلى نجاح، وبعدها ربت

على كتفه، ثم أشار إلى القرآن الكريم والصورة بداخله، فعلم نجاح على الفور أنه لن يقتله من أجل هؤلاء، كانت اللغة التي تكلم بها الإيراني ليست أجنبية، ولا فارسية، ولا عربية، ولا هي لغة ناطقة أصلًا، بل كانت لغة الإنسانية والرحمة، ترك زاهد صفته العسكرية والحربية، ونسى أن هنالك أعداء على هذه الأرض، وتحول إلى إنسان، فقط إنسان رؤوف بحال إنسان آخر لا يتوقف عن البكاء والتوسل أمامه...

تهلل وجه نجاح وأخذ يبكي بكاءً حارًا وهو يحتضن المصحف -بعدما أعاده له الجندي- ويتمتم بكلمات شكر حتى سقط نائمًا بأثر مسكن الآلام الذي أخذه، لم يفهم الجندي الإيراني كلمات الشكر التي سمعها، لكن تلك الابتسامة التي رآها على وجه نجاح، أنسته كل ما قاساه وعاناه في تلك الحرب، وقبل الحرب، أنسته والده وتعذيبه، وأنسته فقدان بندر وعلي، وأنسته كوابيس الليل والجثث المتراكمة، نعم لقد كان الجندي الإيراني هو زاهد..

ترك زاهد نجاح على الأرض، ثم بدأ يفكر كيف سيقوم بإخفائه عن أعين باقي الجنود، وبما أن العشرة دقائق قد شارفوا على الانتهاء، فلابد أن يسرع التصرف...

بسرعة وخفة، جمع زاهد الكثير من الجثث الموجودة داخل الخندق وقام بترتيبهم فوق بعضهم البعض ليشكل بهم

حاجزًا يستر نجاحًا المتمدد خلفه من أعين باقي الجنود الإيرانيين..

بعد ذلك خرج زاهد سريعًا لرفاقه الذين سألوه عن سبب تأخره، فأجابهم أن أحد الجنود كان لا يزال حيًّا، لكنه أطلق عليه الرصاص في الحال، هبط زاهد إلى الخندق مرة أخرى مع رفاقه وأشار إليهم أنه قد انتهى من تفتيش جميع الجثث الموجودة بآخر خندق، ولا يتبقى سوى القليل ممن يستلقون في أول الخندق، وبذلك ابتعد الجنود الإيرانيون عن نجاح تمامًا..

***

مرت الأيام بنفس الطريقة، زاهد يختلس الفرص ويتردد على نجاح ببعض المسكنات والأطعمة اليسيرة، ثم يعود ليباشر أعماله، يوم والثاني والثالث والرابع، وبعد بضعة أيام، هدأت المعارك لبعض الوقت، حيث عاد الجيشان للتزود وإعادة التمركز، في تلك الفترة تلقى زاهد ورفاقه الأوامر بحفر المقابر الجماعية، ودفن الجثث العراقية المتبقية، وهنا، رأى زاهد أن هذه هي الفرصة المناسبة لإنقاذ نجاح، وبالفعل، هبط زاهد إلى خندق نجاح متظاهرًا بأنه يقوم بإخراج الجثث لدفنها، وبعد بعض الوقت، خرج زاهد من الخندق مسرعًا إلى قائده، وعلى الفور أخبره أن أحد الجنود

العراقيين لا يزال حيًّا بأحد الخنادق، هرع القائد مع زاهد إلى هذا الجندي الناجي بأعجوبة، ثم سأله بالعربية: كيف نجا؟ ليجيبه نجاح بسرعة بديهة أنه لا يتذكر في أي خندق كان عندما نسفت خنادقهم، وكل ما يتذكره أنه زحف جريحًا بين الخنادق بطريقة عشوائية وبلا هدف محدد أو استراتيجية للهرب، وأن العناية الإلهية أغشت أعين الجنود الإيرانيين عن مكانه..

في هذه اللحظات كان زاهد يخرج أنفاسه التي حبسها خوفًا من الإجابة التي سيختارها نجاح، لكن نجاح قد أحسن الاختيار، وبالطبع لم يرتب القائد مما قاله نجاح؛ لأن المعجزات دائمًا ما تحدث في الحروب..

على الفور أمر القائد بإخراج نجاح من الخندق وتسليمه للقيادة ليتم اتخاذه كأسير حرب، وبالفعل في خلال ساعات، كان نجاح يتلقى الرعاية الطبية على أحد الأسرة داخل مستشفى السجن الحربي ليتم استخدامه هو وباقي الأسرى كسلاح ضغط سياسي إن كانت هناك فرصة للمفاوضات بنهاية هذه الحرب...

في ذلك الوقت، غادر زاهد نجاحًا، وكلاهما كان يعلم أن تلك هي المرة الأخيرة التي سيرى فيها أحدهما الآخر، سيبقى نجاح داخل المستشفى إلى أن يأذن الله بغير ذلك،

وسيعود زاهد لمواصلة مهامه في الحرب..

استمرت حرب الخليج الأولى دون هوادة ودون تراجع من كلا الطرفين، وبحلول يوم 24 أكتوبر من العام 1980م، وقعت خرمشهر تحت سيطرة الجيش العراقي بشكل كامل، وفي الشمال استولت الفرق العراقية على قصر شيرين، وبحلول نهاية عام 1980م كانت القوات العراقية قد استولت على شريط حدودي بطول 800 كم من قصر شيرين شمالًا حتى خرمشهر جنوبًا بعمق يتراوح من 20 - 60 كم داخل الأراضي الإيرانية..

في 7 نوفمبر نفّذ الجيش الإيراني عملية عسكرية تُسمَّى عملية إبرار على ميناء البكر النفطي بجنوب البصرة، لكن سرعان ما تمكنت القوات العراقية من استرجاع الميناء في أقل من 24 ساعة، كما أعلن الرئيس العراقي في 7 نوفمبر عن وقف تقدم قواته، وأن العراق سيحتفظ بالأراضي الإيرانية المستولى عليها، وأن الجيش سينتهج استراتيجية دفاعية، وبحلول ديسمبر كانت القوات العراقية قد استكملت احتلال منطقة الشوش..

مع نهاية عام 1980م انخفضت حدة القتال، وسارعت القوات الإيرانية بدفع قواتها إلى الجبهة وإعادة تنظيم صفوفها، بينما حافظت القوات العراقية على الشريط

الحدودي التي استولت عليه..

في بداية يناير 1981م شنت إيران هجومًا مضادًا في نواحي الخفاجية، حيث قامت فرقة مدرعة إيرانية بعبور نهر الكرخة والاتجاه غربًا نحو الخفاجية بهدف اختراق الدفاعات العراقية، بدأ الهجوم الإيراني ناجحًا، وتمكنت الفرقة المدرعة من التوغل في عمق الدفاعات العراقية قبل أن يتمكن العراقيون في غضون أيام قليلة من تطويق القوة المهاجمة وإبادتها، تكبدت القوة الإيرانية في الهجوم خسائر ثقيلة قدرت بـ 100 دبابة، واستولى العراقيون على 150 دبابة أخرى، فيما كانت خسائر العراقيين نحو 50 دبابة..

في 7 يونيو استغلت إسرائيل انشغال الدفاعات الجوية العراقية المرهقة على الجبهة الإيرانية، فشنت الطائرات الإسرائيلية هجومًا على المفاعل النووي العراقي الواقع في التويثة قرب بغداد، وحولته إلى مجرد أنقاض خلال ثوان معدودة من القصف.

وبررت إسرائيل قصف المفاعل بأن العراق كان يطور أسلحة نووية..

خلال الحرب قدمت الدول الخليجية الدعم اللوجستي والاقتصادي للعراق، وفتحت الكويت موانئها للعراق، فكانت تعبر الحدود الكويتية إلى العراق ما بين 500 إلى 1،000

شاحنة ثقيلة يوميًا سنة 1981م، وفي أبريل وديسمبر 1981م أقرضت الكويت العراق ما مجموعه 2 مليار دولار بدون فوائد، بعد قرض عقد للعراق في خريف عام 1981م بمبلغ 2 مليار دولار بلا فوائد أيضًا..

وبدورها قدمت السعودية قرضًا قيمته مليار دولار في نهاية هذا العام..

أما قطر فقد قدمت قرضًا بمليار دولار، إلى جانب القرض الإماراتي المقدر قيمته بحوالي 2 مليار دولار..

وكانت إيران قد حذرت الدول الإقليمية بأنها ستتخذ إجراءات عنيفة تجاه أي دولة تحول دعمها الحذر لبغداد إلى تعاون فعال، ونتيجة لذلك تعرضت المراكز الحدودية الكويتية في الشمال لغارات جوية من قبل الطائرات الإيرانية في 12 و16 نوفمبر 1980م، فيما تعرضت مصفاة أم العيش النفطية بالكويت لغارة جوية في 1 أكتوبر من العام 1981م.

في نهاية 1981م تعرضت القيادة الإيرانية لنكسة على إثر سقوط طائرة نقل عسكرية كان على متنها كل من القائد العام للقوات الإيرانية الكولونيل سيد موسى، ووزير الدفاع الإيراني، ورئيس الأركان وقائد القوات الجوية..

وبدءًا من العام 1982م بدأت القوات الإيرانية في إعادة تنظيم نفسها، والقيام بالعديد من الهجمات المتكررة أملًا في إجبار القوات العراقية على التراجع من الأماكن المحتلة، وهو ما نجح في بعض المرات وفشل في بعضها..

فمثلًا في 22 مارس شنت القوات الإيرانية هجومها الذي أطلقت عليه اسم: «فتح» على قوات الفيلق العراقي الرابع المتمركزة في قاطع الشوش-ديزفول، ونجحت القوة الإيرانية في تحقيق اختراق بعمق 20 كم بطول 100 كم على الجبهة، وأجبرت قوات الفيلق الرابع على التراجع إلى خطوط دفاعية جديدة..

وفي نهاية شهر مايو من العام 1982م أعادت إيران السيطرة على خرمشهر، الأمر الذي دفع الحكومة العراقية إلى عرض مبادرة لوقف إطلاق النار في يونيو 1982م، واللجوء إلى التحكيم للوصول إلى حل للنزاع بين البلدين، وقد أعلنت الحكومة العراقية في 20 يونيو 1982م عن عزمها سحب الجيش العراقي من الأراضي الإيرانية خلال 10 أيام، وتم الانسحاب فعلًا في 30 يونيو..

لكن إيران رفضت المبادرة العراقية واشترطت أن تدفع الحكومة العراقية 150 مليار دولار كتعويضات، وأن يُحاكم الرئيس العراقي صدام حسين أمام محكمة دولية باعتباره

المسؤول عن نشوب هذه الحرب، وأن تعطى القوات الإيرانية الحق بالعبور من خلال العراق للاشتراك في القتال الدائر بلبنان...

وبأحداث مماثلة من الكر والفر بين الطرفين، استمرت الحرب للعديد من السنوات، على عكس ما ظنه المسكين نجاح حين وعد حبيبته بالعودة بعد شهرين لإعلان الزيجة، خلال تلك المدة كان نجاح لا يزال يلقى الرعاية الطبية داخل السجن الحربي الإيراني، أما زاهد، فقد تم اعتقاله هو الآخر كأسير حرب في العام 1986م..

ظلت الحرب الضروس دائرة رحاها، واشتملت على الكثير من الأحداث والوقائع، حتى يوم 18 من شهر يوليو من العام 1988م حين قبلت إيران قرار مجلس الأمن رقم 598، وأعلنت وقف الحرب مع العراق...

جاء الإعلان عن قبول القرار عن طريق بيان أصدره روح الله الخميني رئيس إيران، والذي أعرب فيه عن تردده واستيائه العميق في قبول وقف إطلاق النار، ولعل أبرز العبارات الواردة في البيان كانت عبارته حين قال « ويلٌ لي لأني ما زلت على قيد الحياة لأتجرّع كأس السُم بموافقتي على اتفاقية وقف إطلاق النار.. وكم أشعر بالخجل أمام تضحيات هذا الشعب «.

***

أمضى زاهد عامين في السجن الحربي العراقي، حتى تم الإفراج عنه في العام 1988م، حيث إن البلدين قد جلسا للتفاوض بجنيف الروسية حول قرار مجلس الأمن، والذي اشتمل على خمس نقاط جاءت كالتالي: وقف إطلاق النار، الانسحاب إلى الحدود الدولية، تبادل الأسرى، عقد مفاوضات السلام، وإعمار البلدين بمساعدة دولية..

فشلت الجولة الأولى وتوقفت عند البند الأول، وهو وقف إطلاق النار بسبب الاختلاف على تطبيقه بحرًا، حيث أصرت إيران على تفتيش السفن العابرة لمضيق هرمز، وهو ما رفضه العراق.

الجولة الثانية انعقدت في نيويورك في الفترة 1 - 5 أكتوبر على هامش انعقاد الدورة الثالثة والأربعين للجمعية العمومية للأمم المتحدة، حاول خلالها الأمين العام للأمم المتحدة التقريب بين وجهات النظر للطرفين..

في 20 أكتوبر قدم العراق طلبًا لتبادل الأسرى، إلا أن إيران رفضته، فبادر العراق إلى الإفراج عن الأسرى الإيرانيين المرضى لديه، والبالغ عددهم 46 أسيرًا، مما دفع إيران لاتخاذ إجراء مماثل.

وفي 31 أكتوبر بدأت جولة جديدة من المفاوضات في جنيف بدعوة من الأمين العام للأمم المتحدة، إلا أنها لم تكن بأفضل حالًا عن الجولات التي سبقتها، مما أجبر الأمين العام على التنقل بين بغداد وطهران لتقريب وجهات النظر بين البلدين..

كان زاهد من ضمن هؤلاء الأسرى الذين تم الإفراج عنهم بواسطة القيادة العراقية في أكتوبر 1988م..

عاد زاهد إلى بلده تثقله أهوال الحرب وما رآه، كانت الجثث العراقية لا تزال تأتيه في كوابيسه المزعجة، كما أن سنتين قضاهما في السجن الحربي قد أكملا تحطيم ما تبقى من قلبه الصغير..

فور عودته إلى إيران، علم زاهد أن الحكومة الإيرانية كانت قد بعثت منشورات إخبارية إلى أسر كل الأطفال الذين شاركوا في الحرب، وعليه، فإن أسرته القديمة قد تأكدت من أنه كان يحاول الهرب من المنزل فقط للالتحاق بالجيش، وعلى الرغم من أن ذلك ليس بالحقيقة الكاملة، إلا أنه على أية حال ترك لوالده القاسي انطباعًا جيدًا عن ولده الهارب الذي ظهر شجاعًا للجميع..

بعدما أنهكه التجول في الشوارع دون وجهة محددة، جلس زاهد على الرصيف تمامًا كجلسته حين هرب من منزله

قبل الالتحاق بالجيش، لكنه حينها كان لا يزال طفلًا سترق له قلوب المارة، أما الآن، فهو رجل مسؤول يجلس على رصيف الدولة التي دمرها الحرب كما دمر قلوب شعبها، فهذا يشكو عدم عودة أبيه، وذاك يشكو موت أخيه، وهؤلاء يتضورون جوعًا، وهلم جرًّا..

فكر زاهد إلى أين يذهب؟ دون أية إجابة، منذ ثماني سنوات تقريبًا، لم يكن يعلم أين يذهب أيضًا، لكن قدره سعى إليه وألحقه بالجيش ليرى فيه ما رأى، والآن، يجب عليه أن يسعى هو لقدره، وبعد الكثير من التردد والحيرة، اتخذ زاهد قراره النهائي بعدما اتفق قلبه مع عقله أخيرًا، لقد شعر زاهد بحنين جارف إلى أسرته، وبدأ ينظر إلى الصورة الكاملة، لقد كنت طفلًا، لابد أن أباك كان يخشى انضمامك إلى الحرب، كان يخفيك بالمنزل وينهال عليك بالضرب حتى لا يتم التقاطك للالتحاق بالجيش، لابد أن أمك كانت حنونة طيلة الوقت، وأن إخوتك كانوا يحبونك حبًّا جمًّا، لكن ضجرك الطفولي من القهر والحبس المنزلي قد أخفوا كل ذلك من أمام ناظريك، لا شك أن والدك كان عنيفًا وقاسيًا، لكن يا زاهد، لو كنت تعلم أن قدرك سيكون الحرب، وأنك سترى بها ما رأيت من أهوال، هل كنت ستندهش مما يفعله؟ إن كنت أنت الوالد ولك ولد تخاف عليه من مصير الحرب، كيف ستتصرف؟ مهما اختلف تصرفك، أليس من الوارد جدًّا أن

يلتقي في بعض النقاط مع تصرفات أبيك؟ لقد كنت طفلًا مشوشًا ومندفعًا، والآن عليك العودة إلى حضن أسرتك، فلا ألفة بعد الأسرة، ولا عيش بعيدًا عنهم، والآن سيستقبلونك كبطل، بالفعل أنت بطل، فلتقم يا بطل ولتعد إلى أسرتك، لترتمي في حضن والدتك، وتصبح أقوى إلى جانب إخوتك، وترى الفخر في عين والدك.

قال زاهد كل ذلك إلى نفسه، حتى اقتنع تمام الإقناع بما رده، وكما سلك الطريق من بيته إلى الحرب مدفوعًا بنار الكره، الآن، تسلك قدماه الطريق من الحرب إلى المنزل، مدفوعًا بالحاجة إلى الحب...

دق الجرس مرتين، وبالداخل، كان المذياع يذيع آخر أخبار واتفاقيات السلام، ووقع أقدام يسير ببطء نحو الباب، ويقترب شيئًا فشيئًا من أذني زاهد الكائن بالجهة المقابلة من الباب..

ترى من سيفتح الباب، أمي؟ يا ترى كيف أصبح وجهها الملائكي، أخي؟ هل لا يزال كاظم الوجه، أختي؟ أم أنها قد تزوجت، أم أبي، ليراني بعد أن صرت رجلًا..

لكن احتمال آخر لم يكن بالحسبان، سيدة أخرى فتحت الباب وسألت زاهد: من تريد؟

ظل زاهد صامتًا لدقيقة كاملة، يحاول أن يدقق النظر، هل تغيَّر شكل أمه إلى هذا الحد؟

كان يأمل ذلك..

أخبر زاهد السيدة التي فتحت الباب اسمه كاملًا، أن هذا البيت هو بيتي!!

ليتفاجأ بالرد الذي وقع عليه وقع الصاعقة: عذرًا يا ولدي، لقد تركوا هذا المنزل بعد اندلاع الحرب ببضع سنوات، وانتقلوا إلى محافظة أخرى داخل البلاد، ولا أحد يعلم مكانهم، كما أن أخبارهم انقطعت تمامًا، ونأمل أنهم بخير، وأن الحرب لم تصبهم بمكروه..

بقى زاهد شاردًا موصدًا فمه، يتمنى أن يستفيق ليجد كل ما قالته المرأة كان كابوسًا من كوابيسه المعتادة، لكنه تأكد من حقيقته حينما أردفت السيدة بتأثر واضح: هل أنت ولدهم الذي التحق بالحرب؟

أومأ زاهد رأسه موافقًا، لتنهمر دموع السيدة في الحال..

استفسر زاهد عن سبب البكاء، فأجابته السيدة وبكاؤها يشتد: لقد ظنوا أنك في عداد الأموات يا ولدي، أنا آسفة لقول ذلك..

ضربة أخرى أصابت زاهد فوق رأسه..

لكنه تماسك كما كان يتماسك وهو يحفر القبور ويرمي الجثث، ثم سأل السيدة: هل تعلمين كيف أجدهم؟

أجابته السيدة بالنفي القاطع، وتمنت له الحظ الجيد، ثم أغلقت الباب وهي تبكي..

مثقلًا بذكريات الحرب، وبجرح مشاعره، وبخيبة الأمل، سار زاهد في الشوارع مكلوم القلب، مصدومًا..لا يعلم ما الأزمة التي ينبغي عليه مواجهتها؟ هل اكتئاب ما بعد الحرب وآثار السنوات الدامية الماضية؟ أم أنه مشرد في الشوارع لا بيت يأويه؟ أم الضائقة النفسية التي عصرت قلبه بعدما علم أن أهله يئسوا من رجوعه واستسهلوا المغادرة وتركوه مجهول المصير؟ وحتى يبرروا الأمر لأنفسهم، اعتبروه ميتًا، يا ليتني ما قاومت عقلي وقلبي، يا ليتني ما أقنعت نفسي بأنهم أسرتي التي أحبتني، لقد اعتبروني ميتًا، مجددًا، لثلاثة عشر عامًا اعتبروني ميتًا، وقادوني بأفعالهم إلى الحرب، والآن، كما هم، لا وجود لزاهد في حياتهم!!

ماذا على أن أفعل؟ أحاول إيجادهم؟ أبحث عنهم؟ هل لا زالت هناك فرصة ليستقبلوني بينهم؟ هل اعتبروني ميتًا إرضاءً لضمائرهم شبه الميتة؟ أم أنهم اضطروا إلى ذلك؟! فكم طفل إيراني متطوع قد انضم للحرب وكم منهم قد

نجا؟ مئات الآلاف من الأطفال تم تجنيدهم، وأكثر من 95 ألف طفل قد قتل، هل هذا مبرر كافٍ ليفقدوا الأمل في عودتي؟

ظل زاهد يطرح الأسئلة على نفسه دون أن يجيب، ودون أن يعي في أرض أي تحط قدماه وإلى أين يسير؟ حتى وجد نفسه في نهاية المطاف أمام مسجد الحي الكبير الواقع إلى جانب المقابر، وهناك، قرر زاهد أن هذا المسجد سيكون مسكنه لليلة، أو ليلتين، أو أسبوع، أو.. لا يعرف..

قطع زاهد الطريق بين القبور قاصدًا المسجد، وفي منتصف الطريق تعثَّر ليسقط على وجهه، وبينما يعاود النهوض، أجبره شيء ما على السقوط مرة أخرى، شيء أبعد مما تخيله عقله، وأقسى عليه من الحرب ومآسيها وكل ما قاساه فيها، لقد كان اسمه منقوشًا على أحد القبور، لقد سقط زاهد نفسه أمام قبره، هنا، أخذت أسرته التعزية على روحه، وهنا، أذرفت الدموع على رحيله، إن كان هناك من بكى على رحيله، وهنا، دفن زاهد بالنسبة لأسرته وأهل بلدته، إلى الأبد، ودون رجعة..

تجمد عقل زاهد كما تصلبت مفاصله، أخذ يصيح ويطلق صرخات أعتى من تلك التي أطلقها وهو يهرب من القصف العراقي بالحرب، ظل على هذه الحال حتى خارت قواه

وتحول كل صياحه وصرخاته إلى بكاء غزير..

لكن في غضون خمس دقائق، كان زاهد قد كفَّ عن البكاء وأخذ يحدّث نفسه، هل أنت مجنون؟ هل أنت غبي؟ لم تبكي؟ أنت لا تزال حيًّا!

أي نوع من الرجال أنت؟ استيقظ مما أنت فيه وانظر إلى حالك، أنت لا تزال حيًّا!

بهذه الكلمات، استطاع زاهد أن يشحن عزيمته لتجاوز الموقف، وقطع ما تبقى من خطوات إلى داخل المسجد، وهناك، نام على الأرض كما لم ينم من قبل...

***

بضعة أيام من اللاشيء، لا يعرف زاهد ما يجب عليه فعله، كان الحصول على حياة طبيعية كل ما يتمناه، وأصعب ما يمكنه تحقيقه..

بعد مرور بعض الوقت، أتاه القدر مرة أخرى، وألحقه بوظيفة، ليحاول أن يجد لنفسه حياة عادية مثل باقي البشر، عمل زاهد على إحدى السفن ضمن طاقمها، أحيانًا يصطاد، وأحيانًا ينقل المعدات، وعمومًا يفعل ما يطلب منه على متن السفينة، لكن جزء مهم في حياته لم يتغير، الكوابيس الحربية، والاكتئاب العنيف..

بعد بعض الوقت، أجبرت الظروف زاهدًا على مغادرة إيران، والذهاب إلى كندا، وعلى متن سفينة متجهة إلى فانكوفر بكندا، وقف زاهد يراقب الميناء الإيراني وحجمه يتضاءل أمام ناظريه بالتدريج، وبقدر تضاؤل صورة الميناء، بقدر تعاظم الاكتئاب والغضب الهائج داخل زاهد...

***

لا جديد، عمله البحري في إيران هو عمله البحري في كندا، كوابيسه المدججة بالجثث والدماء في إيران، هي كوابيسه في كندا، وحدته وانعزاله وحياته الصعبة في إيران، هي نفسها في كندا، لكن اكتئابه الضخم في إيران، قد تضاعف آلاف المرات في كندا، لم يدخر أي جهد في محاولاته لمجابهة الحياة بكل ظروفها وتقلباتها، لكن دون أية جدوى..

وأخيرًا، نفذت كل طاقته، ولم يتبقَ منها سوى ما قاده إلى قراره الأخير، الانتحار، لم يكن الأمر صعبًا أمام زاهد ليتخذ ذلك القرار، كل الظروف كانت تؤهله لذلك، لكن الصعوبة كل الصعوبة، كانت تكمن في عجائب القدر، الطفل الذي هرب من أسرته، وأمضى ست سنوات في الحرب، وسنتين في السجن الحربي، طارت فوق رأسه أمام الصواريخ، ومرت إلى جانب أذنه آلاف الطلقات، وتعثرت قدماه آلاف المرات، وتطايرت حوله آلاف الأشلاء، نجا من كل ذلك، وسيموت منتحرًا..

كان زاهد يفكر في ذلك وهو جالس في غرفته إلى جانب رفاقه في السكن والعمل، منتظرًا نومهم ليضع الحبل الذي اشتراه وينهي حياته بيده، لكن القدر قال كلمته مرة أخرى، في هذه الليلة بالتحديد، قرر رفاقه السهر إلى الصباح، لا سيما أن الغد إجازة من العمل، وفي هذه الغرفة الضيقة، لن يستطع زاهد الانتحار دون أن ينقذه زملاؤه، فاضطر الانتظار للغد، لكن بالغد، أُجبر على شيء آخر..

فبعدما لاحظ رفاقه حزنه الدفين واكتئابه العظيم وانعزاله الدائم، فكروا جديًّا في مساعدته، وبالغد، كانت نتيجة التفكير، فقد أجبروه على الذهاب إلى مكان يسمى:

Vancouver Association for the Survivors of Torture أي VAST

وهو مركز كندي مختص بمساعدة الناجين من الحرب نفسيًّا، وإعادة تأهيلهم ليحظوا بحياة صحية سليمة، بالطبع لم يكن رفاق زاهد قادرين على إجباره على الذهاب دون موافقته، لقد وافق، لكن أمله في جدوى هذه الزيارة لم يكن يتخطى الواحد من المليون..

هناك، أكمل زاهد الاستمارة المطلوبة، ثم جلس لينتظر دوره بالساحة الخارجية..

في أقصى الساحة، كان هناك رجلًا لا يبدو كنديًّا أبدًا، يطيل النظر إلى وجه زاهد، بادله زاهد نفس الاهتمام والنظرات، لكن دون أي خطوة منه تجاهه، لكن الرجل الآخر لم ينتظر كثيرًا، بل قام من مكانه وجاء إلى حيث يجلس زاهد، ثم بادر بالتحدث قائلًا:

- سلام

أجابه زاهد

= سلام

- هل أنت عراقي؟

= لا، أنا إيراني، ظننتك إيرانيًّا أيضًا.

- لا أنا عراقي.

= لقد لاحظت أنك لست كنديًّا من البداية فعلًا.

- وأنا أيضًا، لكنني كنت مترددًا بعض الشيء في البدء بالحديث معك.

= نِعم ما فعلت أنا وحيد هنا تمامًا، أراك تتحدث بلهجة فارسية ثقيلة، لكنها جيدة إلى حد كبير، أين تعلمتها؟

- اااه، إنها قصة طويلة.

= هل عشت بإيران؟

- لالا، لقد كنت أسير حرب داخل إيران.

ضحك زاهد ثم قال:

= لقد كنت أسير حرب أنا الآخر، في أي مدينة أسرت؟

اندهش الرجل العراقي ثم قال:

- يا لها من صدفة، لقد أسرت في خرمشهر، لقد كنت جنديًّا في هذه المدينة.

هب زاهد واقفًا ثم سأل:

= في أي يوم؟

فأجابه الرجل العراقي ليواصل زاهد بسؤال آخر:

= أي خندق كنت بداخله في خرمشهر؟ لقد نسفت كل الخنادق العراقية هناك.

- نعم نعم، لكن الله رزقني بجندي إيراني شاب، لم يكن لديه لحية ولا شارب، وبطريقة ما، أنقذني من الموت..

هنا، أدرك زاهد أن القدر لن يتوقف عن مفاجئته مرة تلو الأخرى، ثم سأله على الفور:

= هل كان لديك نسخة من القرآن الكريم وبداخلها صورة

لزوجتك وولدك أثناء الحرب؟

ليهب الرجل العراقي واقفًا هو الآخر! ثم صاح:

- نعم، كيف عرفت؟؟

= أعلى ذراعك الأيمن لديك علامة مميزة، وببطنك لديك بعض الغرز، أليس كذلك؟؟؟

كرر العراقي صياحه:

- نعم نعم نعم، هذا صحيح، كيف تعرف كل ذلك، هل كنت أحد المعالجين لي بالسجن الحربي؟؟

فقد زاهد السيطرة على نفسه وبدأ يصيح بصوت جهور قائلًا: إنه أنا إنه أنا، أنا من أنقذتك من الخندق لقد كنت أنا..

بالضبط، لقد كان الرجل العراقي هو نجاح، وهنا، بفانكوفر في كندا، ومن وسط 36 مليون إنسان داخل كندا يمكن أن يصادف كل منهما الآخر، جمع القدر بعد 20 عامًا بين جندي عراقي تم الإفراج عنه عام 2000م، وجندي إيراني تم الإفراج عنه عام 1988م، بعدما أنقذ أحدهما الآخر عام 1980م....

بعد لحظات، كان أخو نجاح قد خرج من مكتب المقابلة إلى الساحة ليجد نجاحًا يصيح برفقة رجل آخر، وكلاهما

يعانق الآخر بحرارة ويبكي، ما أن رأى نجاح أخاه حتى هرول إليه وهو يصيح: الجندي الإيراني، الجندي الإيراني الذي أخبرتكم قصته، إنه هنا، بكندا، لقد التقيت به، ها هو ها هو..

شاهد أخو نجاح المشهد وهو مذهول، مثله مثل كل الحاضرين بساحة المبنى، الذين جذب الصياح أنظارهم ليكونوا شاهدين على واحدة من أغرب القصص في حياتهم وفي تاريخ الحروب..

***

في أغسطس من العام 1990م انسحبت القوات العراقية من الأراضي الإيرانية بشكل مفاجئ، وقامت بتسليم جميع الأسرى الإيرانيين المسجلين لديها، وبدأت في غزو دولة الكويت في يوم 2 أغسطس 1990م..

ظلت إيران محتفظة بالعديد من الأسرى العراقيين حتى بعد انتهاء الحرب، وأفرجت عنهم بالتدريج، إلى أن أفرجت عن آخرهم في العام 2000م، ومن ضمن المفرج عنهم في هذا العام، كان الجندي العراقي نجاح..

خرج نجاح من الأسر وعاد إلى العراق، وحينما ذهب إلى منزله وجده خاويًا، تمامًا كما وجد زاهد، لكن عائلة نجاح

والتي كانت قد هاجرت إلى كندا، سرعان ما عرفت بخبر العفو عنه، وأرسلوا له ليجلبوه للعيش معهم بكندا، وهو ما حدث بالفعل..

ذهب نجاح إلى هناك بكل الغضب الذي خلفته الحرب بداخله، ولم يبدأ التعافي من أثر الحرب، سوى في ذلك اليوم، حينما طلب منه أخوه أن يوصله إلى مركز فانكوفر للناجين من الحروب، فلديه مقابلة مهمة هناك، وهو لا يستطيع القيادة، لبَّى نجاح رغبة أخيه، وهناك حدث ما حدث والتقى بزاهد..

هذان الرجلان الذي ارتدى أحدهما عباءة الإنسانية في معمعة الحرب، وأنقذ أحدهما الآخر من الموت، ولم يكن حتى لهما معرفة بأسماء بعضهما حتى التقائهما هنا في كندا، بعد 20 عامًا، ولأن زاهد عرف أهمية الروح وقدرها، وأهدى نجاح فرصة أخرى للحياة إكرامًا لعائلته، رد نجاح لزاهد ما فعله معه داخل الأراضي الإيرانية، لكن هنا بكندا، فقد ضمَّه إلى أسرته واعتبروه واحدًا منهم، كما أمَّن له وظيفة مجدية، لتنقلب حياة زاهد رأسًا على عقب، انكسرت كل السدود وانقشعت كل الكوابيس، وبات النور والأمل يسودان بحياة زاهد، الذي حصل أخيرًا على فرصة جادة ليحيا حياة طبيعية سعيدة...

تلك القصة، هي قصة خالدة من قصص الحرب، فمن رحم الحرب الضارية، ولدت فرصة نجاة لنجاح، منحها له زاهد، ليجنيها بعد أعوام، في زمان غير الزمان، وعلى أرض غير الأرض..

وبذلك، أسدل الستار على علاقة هذين الجنديين بتلك الحرب، الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت من 22 سبتمبر 1980م إلى 20 أغسطس 1988م.

وانتهت بفشل العراق بضم الأراضي على الضفة الشرقية من شط العرب، وتعزيز النزعة الانفصالية العربية في محافظة خوزستان الإيرانية، وفشل إيران في إسقاط نظام صدام حسين وتدمير القوة العسكرية العراقية..

كما كبدت العراق خسائر عسكرية وبشرية تتمثل في 340،000 قتيل، و700،000 جريح، و400،000 لاجئ، و70،000 أسير.

وبالطبع لم تنج إيران من تلك الخسائر، بل تجرعت ما هو أفدح منها بواقع 730،000 قتيل، و1،200،000 جريح، و2،000،000 لاجئ، و45،000 أسير.

هذا فضلًا عمَّا يزيد عن 100،000 قتيل مدني في صفوف كلا الطرفين.

إلى جانب الخسائر الاقتصادية الفادحة والدمار الناتج الذي لا تزال بعض المباني المتهدمة في خرمشهر مثلًا شاهده عليه إلى وقتنا هذا.

كانت تلك هي نتائج واحدة من أكثر الحروب دموية وأطولها في التاريخ، لم تفز إيران، ولم تنتصر العراق، بل فاز زاهد، وانتصر نجاح.

***

صديقي العزيز ما أحوالك؟! حقًّا لقد اشتقت لك، اعذرني إن أطلت فترة غيابي وتركتك في تلك الحجرة وحيدًا، لكنني كنت أحاول جاهدًا تحسين وضعك والحد من عقابك، وللأسف، خاب سعيي، بعدما مكثت كل تلك الفترة في طلب العفو والسماح لك بمواصلة الرحلة واحتلال الأجساد، لم تستجب كوكوريا لطلبي في النهاية، يبدو أن موتك في اليابان لا زال يغضب كوكوريا كثيرًا، ولم تلق بالًا لغيابك عن الرحلة الأخيرة، أي: أنه ليس عقابًا كافيًا، ولابد من مواصلة دفع ضريبة العودة لتقمص الشخصيات واستبدال الأرواح مرة أخرى.

اعلم أن الحديث بيننا الآن تسوده مشاعر حزينة وخلفية سوداء، لكن لا عليك، لم يعد الأمر بعيد المنال، كما أن الطريقة التي ستواصل بها كوركوريا عقابك لن تجدها سيئة

في رأيي، بالعكس أراها مسلية جدًّا وتجربة فريدة من نوعها، لكن قبل الخوض في هذا الحديث، أخبرني ما رأيك في قصة زاهد وناجح؟ هل أدت القصة مرادها في إيصال أهمية الروح؟ هل تعلمت منها أن قوتك الحقيقية تتمثل في أن تمنح غيرك الحياة، لا أن تحرمه إياها؟ حسنًا، أتمنى أنك قد تعلمت ذلك، أو حتى جزءًا منه...

أنا أعلم تمامًا السبب الذي يمنعك من الإجابة على أسئلتي والاكتفاء بالنظر إلى بهذه الطريقة الغاضبة، لذلك لن أطيل عليك، لكن أرجوك، أريدك أن تتأكد ألا دور لي في تلك الأوامر، هي أوامر كوكوريا، ما أنا إلا مرسال، كما أنني أقسم لك أني لم أدخر أي جهد في محاولة تخفيف العقاب، لكن لا جدوى!

وأيضًا أريدك أن تثق بي، لقد وعدتك بأن تكون طريقة العقاب شيقة، ولن تشعر بالوقت الذي سيمضي أثناء التنفيذ، وتخفيفًا عليك سأقوم أنا بدورك في رمي النرد وخلافه...

كالعادة، تضيء الشاشة لترينا ما نحن في انتظاره، خريطة لأرض ما، قد تكون الخريطة الأشهر في عالم الجغرافيا، حديثًا وقديمًا، كيف لا وهي لأحد أشهر بقاع الأرض وأهمها، خريطة مصر، تظهر الشاشة مساحة مصر مضيئة باللون الأبيض وسط عتمة تامة تخيم على باقي بقاع الأرض، لكن

تمتد الإضاءة بطريقة أو بأخرى لبعض البقاع الصغيرة المتفرقة حول مصر، بعد ذلك يتغير المشهد الظاهر على الشاشة، ليسيطر على العرض شخص ضخم الجثة جاف الملامح، يبدو من هيئته أحد الفراعنة المصريين، ويبدو من وجهه الغضب الجم والشر الشديد..

الآن اترك الشاشة قليلًا وانظر إليّ، ستظل جالسًا في مكانك، تراقب الشاشة، لكن هذه المرة لن تراقب القصة فقط للاستمتاع أو الحصول على رسالة معينة، لا، ستراقبها بكل تركيز ودقة، ففي اللحظة التي سينتهي بها العرض على الشاشة، سيبدأ اختبار كوكوريا لك، لتحديد أهليتك لمواصلة رحلاتها المهمة، وبالتأكيد هذا الاختبار سيكون مبنيًا على ما ستشاهده في هذا العرض، لذا استرخ واستجمع تركيزك، واستمتع بالعرض الشيق، ولا تقلق عليّ، أنا هنا حولك، سأختفي وسأعود، لكن ثق تمامًا، حينما تشعر أنك في حاجة لوجودي، ستنظر إلى يمينك فتجدني إلى جوارك....

***

* تنويه: كل المعلومات الواردة عن نجاح وزاهد حقيقة بما في ذلك تفاصيل اللقاء داخل الحرب وبكندا وما تلاها، إلى جانب تفاصيل اللقاء بأسرتيهما بعد الحرب أو قبلها، إلى جانب كل التفاصيل والتواريخ الحربية المذكورة، والأماكن

التي تمت الإشارة إليها، الكل حقيقي تمامًا.

الفصل الخامس

الكليم

المكان: مصر.

الزمان: ستتعرف عليه وحدك.

***

- ايثان! ايثان!! ألا تسمعني بعد كل هذا النداء؟!!

= أسمعك، أسمعك، عفوًا فأنا مشتت بعض الشيء.

- ما بك يا ايثان؟ تلك هي المرة الأولى التي أراك فيها بهذه الحالة!

= ها.. لا لا شيء، أنا على ما يرام..

- ايثان، أنا أوناس صديقك منذ خمسة عشر عامًا، لم أذع لك سرًّا، ولم أخطئ مرة في فهمك، لا تكذب على ولا تقلق مني، أخبرني ما بك؟ وإلى أين تذهب تاركًا العمل؟

= الوشاة، الوشاة أخبروني بما لم أستطع تحمله.

- بماذا أخبروك؟!

= لقد قرر فرعون أن يقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل.

- ماذا؟ وما المبرر؟ بالتأكيد تلك شائعات ساذجة!

= لا أعلم، لا أعلم لكن ذلك ليس بغريب عليه..

- ومن أخبرك بذلك؟ وما الدافع وراء هذا القرار؟

= الدافع ليس أكيدًا، فالبعض يقول: إن فرعون رأى في منامه ما أفزعه، لقد رأى ما يشبه النار قد أقبلت من جهة بيت المقدس حتى وصلت إلى مصر، وأحاطت بكل الدور والبيوت فأحرقتها، وأحرقت المصريين، وتركت بني إسرائيل دون أذى! ومن هول الرؤية، طلب فرعون أن يأتوه بالكهنة والسحرة والمنجمين، وسألهم عن تأويل هذه الرؤيا وتفسيرها، فكان جوابهم أن هذا غلام يولد في بني إسرائيل يكون السبب في هلاك أهل مصر، ويكون ذهاب ملك فرعون على يديه أيضًا، ويخرجه هو وقومه من مصر ويبدل دينها، كما أن موعد ميلاد هذا الغلام قد اقترب كثيرًا..

والبعض الآخر يقول: إن فرعون وصلته الأنباء التي تفيد بكون أحد شيوخ بني إسرائيل هو من رأى رؤيا تؤدي نفس المعنى، فقام بنشرها في أوساط بني إسرائيل لطمأنتنا ومطالبتنا بالصبر على ما نحن فيه من بطش فرعون وأتباعه، وتناقلت الألسن هذه النبوءة حتى وصلت إلى مسامع الطاغية فرعون..

- لكن يا ايثان من الممكن أيضًا أن تكون هذه النبوءة ما هي إلا اختراع من وحي خيال الشيخ الذي أطلقها، لطمأنتكم من جانب، ولردع أتباع فرعون عن أذيتكم إن خافوا من جانب آخر!

= لا أعلم ولا يهم ذلك، ما يهم هو أن فرعون قد أخذ قراره بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل..

- ومن أخبرك بذلك لم تجب على سؤالي حتى الآن؟

= زوج أحد القابلات ذكر لي أن فرعون قام بجمع القابلات وأمرهن بألا يولد على أيديهن غلام من بني إسرائيل إلا يتم قتله، وكعادته قام بتوبيخهن وتهديدهن، كما وكَّل بهن وكلاء لمتابعة تنفيذ أوامره..

- وما يخيفك يا ايثان؟ هل ذكروا شيئًا عن قتل الرجال؟

= امرأتي حامل يا أوناس، وقد اقترب موعد وضعها، كنت أدعو كل ليلة أن تضع ذكرًا بعد ما وضعت أنثيين من قبل، وإن استُجب دعائي فسيهلك نجلي قبل أن يمضي على ولادته بضع ساعات، اعذرني لا يمكنني المكوث أكثر من ذلك، سأعود إلى زوجتي لنجد حلًّا لما نحن فيه..

- مسكين أنت يا ايثان..

***

- ايثان، كيف حالك، آمل أنني قد استطعت قراءة وجهك قراءة صحيحة، وأن تلك الملامح التي تعتليه هي ملامح ارتياح، أخبرني ماذا حدث في الأسبوعين الماضيين ولماذا لم أرك؟

= لقد نجونا يا أوناس، لقد وضعت امرأتي أنثى ثالثة، وكنت إلى جوارها حتى استقرت حالتها..

- هنيئًا لك يا صديقي، وماذا عن تلك الأوامر التي أخبرتني عنها؟ هل ثبتت صحتها؟

= للأسف يا أوناس، القابلات تنفذن أمر فرعون ويقتلن كل مولود ذكر من أطفال بني إسرائيل خوفًا منه ومن بطشه..

- والإناث لا يقتلن أليس كذلك؟

= لا لا يُقتَلن بل يبقين على قيد الحياة من أجل الخدمة والتسخير في رأي الطاغية..

***

قال تعالى: }وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ{ [سورة إبراهيم/6]

***

استطرد ايثان: كما أن أوامره لم تقف عند الغلمان المولودين حديثًا، بل طالت كل أطفال بني إسرائيل من الذكور، وبالطبع لم يتخلَّ جنوده عن ارتجالهم القذر كعادتهم، فبدأوا في تعذيب الحبالى من نساء بني إسرائيل حتى أصبحت المرأة منا تسقط حملها خوفًا من التعذيب والتنكيل على أيدي جنود فرعون المفسدين الطغاة كقائدهم..

- قلبي يعتصر ألمًا مما تسمعه أذناي يا ايثان، لكن ما باليد حيلة، فقد طالنا بطشه، نحن -المصريين- بنو جلدته، فلا أتعجب مما أسمعه عن ظلمه لبني إسرائيل...

***

مرت السنون على هذه الحال، فرعون لا يتوانى عن قتل كل غلام يولد في بني إسرائيل، حتى أتى التدخل الإلهي، فشرع عزرائيل يحصد الأرواح من شيوخ بني إسرائيل بكثرة، مما أثار الخوف في نفوس بعض المستشارين في حاشية فرعون، ليس الخوف من الموت أو الاتعاظ بالمصائر، بل الخوف على مصالحهم ووضعهم الرفيع، فاجتمعوا عند فرعون وأخبروه بتخوفهم من كون الموت قد كثر وشاع في مشيخة بني إسرائيل، وفي الوقت ذاته يقتل الغلمان حديثي الولادة كلهم، وبالتالي لن يبقى أحد من بني إسرائيل للقيام بالأعمال الموكلة إليهم، لذلك فهم متخوفون من أن تأتي

اللحظة التي تضطرهم على القيام بالأعمال والخدمات بأنفسهم، وهذا لا يصح وهم وجهاء القوم، كما أن تلك الأمور سوف تضر باقتصاد البلاد وحالتها العامة..

وهو ما أقنع فرعون فقرر تعديل أوامره، فبدلًا من قتل ذكور بني إسرائيل كل عام، سيقوم بقتلهم عامًا وتركهم الآخر، وبذلك يحافظ على نسلهم من الهلاك، وعلى قوته العاملة من النقصان..

***

- إلى أين أنت ذاهبة يا أمي؟

= لقد بعثت إلى يوكابد زوجة عمران لأسرع إليها، فقد شارفت على الوضع..

- نأمل ألا تضع ذكرًا يحملك مشقة التبليغ لقتله..

= لا أظن ذلك، تبدو يوكابد محظوظة، فمنذ ثلاثة أعوام صادف وضعها نجلها هارون للعام الذي يُسمح فيه لذكور بني إسرائيل بالحياة، وبما أن هذا العام لا يسمح للذكور بالعيش، أظنها ستضع أنثى جميلة مثلك يا ابنتي، لا تقلقي لن أتأخر..

بعد هذه الكلمات خرجت القابلة من بيتها قاصده بيت عمران وزوجته يوكابد، كانت تلك القابلة من المصريين، لكنها

صديقة موثوقة لإحدى نساء بني إسرائيل، يوكابد بنت لاوي، وكانت القابلة قد أشرفت على ولادة يوكابد لنجلها هارون ونجلتها مريم، والآن حان موعد الإشراف على ولادتها الثالثة، في الطريق كانت القابلة تشارك ابنتها نفس الأمنية، فقد كانت تتمنى أن تضع يوكابد أنثى فتُجنبها مآسي الإبلاغ عن الذكور لقتلهم، لا سيما أن يوكابد صديقتها وستترجاها كثيرًا ألا تفشيَ سرَّها إن كان المولود ذكرًا، لكن على أية حال، لن تتأثر القابلة بالعواطف مهما حدث، لن تعرض نفسها لبطش فرعون ورجاله من أجل صديقتها يوكابد إن وضعت ذكرًا..

دخلت القابلة على يوكابد، وكما توقعت تمامًا، الكثير من كلمات الرجاء والاستعطاف تتلوه يوكابد على مسامعها قبل أن تلد حتى! يبدو أنها تشعر بأنها تحمل ذكرًا بداخلها، وبدأ الإحساس نفسه يتسرب إلى القابلة، لكن الرجاء لم يغير من عزيمتها على الإبلاغ عن المولود إن كان ذكرًا...

مر بعض الوقت، وحانت اللحظة التي أمسكت فيها القابلة بالمولود بعدما سحبته من داخل أمه، وشرعت في النظر إليه، لقد كان ذكرًا! وما كان من المفترض على القابلة أن تفعله هو أن تضعه فورًا إلى جوار أمه وتخرج مسرعة للإبلاغ، لكنَّ شيئًا ما قد عطلها، شيء ما أنساها تلك

الخطوات التي اتخذتها في مرات عدة!

هذا المولود بين يديها، كان نورًا ساطعًا يضيء جبينه، نور أسرى الرعشة بجسد القابلة وجعلها كالمشلولة، غير قادرة على اتخاذ أي قرار بخلاف النظر إلى هذا المولود الجميل! نبتة من الحب قد ترعرعت داخل قلبها تجاه هذا المولود، وكبرت في وقت قياسي! كل تلك القسوة التي كانت تشحذ بها عزيمتها لتبلغ عن المولود فتنجو من عقاب فرعون، تحولت إلى حنان وعطف على ذلك المولود وحبًّا جمًّا له، لقد حملت القابلة على يديها مئات الأطفال قبل ذلك، ولم يسبق أن شعرت بكل هذا الحب لأي منهم أبدًا!

استجمعت القابلة نفسها، ووضعت المولود بين يدي أمه الخائفة المتوجسة، وأخبرتها بصدق عن نيتها الأولى في الإبلاغ عن مولودها إن كان ذكرًا حتى لا تجلب لنفسها ولبيتها الخراب، لكنها ما إن رأت الطفل حتى أحبته حبًّا جمًّا، وقررت مساعدة أمه في إخفائه عن أعين فرعون ورجاله، ومما سهل عليها القرار نوعًا ما أن يوكابد في حملها لنجلها لم تبد عليها أي آثار للحمل، فلم يتغير حجم بطنها، فبالتالي لم يلحظ حملها أحد من رجال فرعون..

بقت يوكابد حائرة بين مشاعرها، فمن ناحية تود التعبير عن جزيل شكرها للقابلة على كتمان السر، ومن ناحية أخرى

تعاظم الخوف على مولودها الذكر الجميل، لكن القابلة هوَّنت عليها ذلك قليلًا، ونصحتها بالحفاظ على المولود وحسن إخفائه عن رجال فرعون، وهمَّت مسرعة بالمغادرة حتى لا يلاحظ غيابها أحد..

***

«وَاسْمُ امْرَأَةِ عَمْرَامَ يُوكَابَدُ بِنْتُ لاَوِي الَّتِي وُلِدَتْ لِلاَوِي فِي مِصْرَ، فَوَلَدَتْ لِعَمْرَامَ هَارُونَ وَمُوسَى وَمَرْيَمَ أُخْتَهُمَا». [عد 59: 26] (الإنجيل)

***

ولد سيدنا موسى -عليه السلام- في عهد الطاغية الوليد بن مصعب فرعون مصر، وكان فرعون هو لقب حاكم مصر، ويقال: إنه تولى الملك بعد موت أخيه قابوس، لكنه كان أشد فجرًا وطغيانًا منه، فقد اشتهر بالعند والطغيان، كما ادعى الألوهية، وقد ذاق بنو إسرائيل من أذاه وشره ما لم يذوقوه من قبل، فقد سُلط هذا الملك الطاغية المتكبر فرعون -الذي عمّر مدة قيل: تزيد على أربعمائة سنة- على بني إسرائيل يذيقهم العذاب، يذبح أبناءهم ويستبقي نساءهم للخدمة، ويستخدم الرجال منهم في أخس الصنائع والحرف، وكان قد صنفهم أصنافًا، فصنف يبنون، وصنف يحرثون، وصنف يتولون الأعمال القذرة، ومن لم يكن منهم أهلًا للعمل كان

يأخذ منه الجزية..

***

يقول الله تبارك وتعالى: }نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ{ [سورة القصص 3 - 6]

مرت الأيام وقلب يوكابد يتقطع خوفًا على نجلها، فكانت ترضعه سرًّا، وصنعت له صندوقًا خشبيًّا، وجعلت فيه قطنًا، ثم وضعت فيه وليدها الصغير، موسى عليه السلام، ويقال: إن دارها كانت مجاورة للنيل، وأنها استغلت هذا الأمر بأن ربطت الصندوق بطرف حبل طويل، وحينما يصل رجال فرعون للتفتيش الدوري، تترك الصندوق في النيل وتربط الطرف الآخر للحبل في منزلها، وما أن ينصرفوا حتى تسحب الصندوق مرة أخرى وترضع نجلها وتخفيه بدارها بعناية..

لكن الخوف لم ينقطع ولم يرتح قلبها، حتى أتتها سكينة ربانية من عند الله، وبإلهام غريزي داخل قلب الأم، أخذت

يوكابد صندوق الطفل ووضعته بداخله، ثم ذهبت به إلى النيل، وتركته في النيل كما أُوحي إليها..

***

قال الله تبارك وتعالى: }وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ{ [سورة القصص/7].

***

انطلق الماء بالصندوق، يرفعه الموج تارة ويخفضه أخرى، وقلب يوكابد لا يزال يتمزق خوفًا بين أضلعها، والقلق يسيطر على عقلها، لكنها تماسكت وآمنت بوحي الله، وتركت رضيعها وديعة على ضفاف النيل العظيم الذي شقه خالق أعظم لا تضيع عنده الودائع، فنفذت يوكابد الأمرين، أن أرضعته وألقته في اليم، وانتهت عما نهاها عنه الله، الخوف والحزن، لكن الانتهاء عن الخوف والحزن في هذا الموقف كان في غاية الصعوبة، ولذلك استقوت يوكابد بوعدي الله، أن يرد نجلها إليها، وأن يجعله من المرسلين..

هدأت المياه كأنها تستقبل موسى بلطف وحنان، وبدأت تسير به نحو وجهة حددها له الله، وجهة تراقبها مريم التي أرسلتها أمها لتتابع الصندوق وتخبرها عن مرساه..

***

}وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{ [سورة القصص/11]

***

عادت مريم إلى أمها بالخبر المهول، لقد رسا الصندوق عند قصر فرعون!

هلعت أم موسى وتعجبت! لقد وضعت نجلها في صندوق وتركته للنيل يتقاذفه لتحميه من فرعون ورجاله اللذين يريدون قتله، فيذهب به النيل إلى فرعون بنفسه!

ارتبكت يوكابد وسيطر عليها الخوف مرة أخرى، وفكرت في العديد من الأشياء الواجب عليها فعلها، لكن أكثر ما فكرت فيه هو أن تذهب إلى قصر فرعون وتخبره بالقصة، وبأن ذلك نجلها، وأنها فعلت ذلك خوفًا من أن يُقتل وأن تترجاه حتى يتركه لها دون أن يقتله رجاله، ورغم صعوبة الجدوى من وراء هذه المحاولة إلا إنها كانت المحاولة الأخيرة الممكنة، لكن سرعان ما عادت يوكابد عن تلك الفكرة، وتمسكت بإيمانها بالله وثقتها في وعده، وتركت الأمر كله لله بعدما هبطت عليها السكينة الإلهية التي ألهمتها الصبر والارتياح..

}وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{ [سورة القصص/10]

***

على الجانب الآخر، وبينما كانت الجواري في قصر فرعون يغتسلن على ضفاف نهر النيل، أبصرن هذا الصندوق، فأخذنه وظنن أن فيه مالًا وأشياء ثمينة، فحملنه على حالته إلى زوجة فرعون آسية بنت مزاحم، وكانت من بني إسرائيل، وكانت مؤمنة صالحة تكتم دينها خوفًا من الطاغية فرعون..

فلمَّا فتحت باب الصندوق رأت فيه طفلًا جميلًا وسيمًا أُلقيت في قلبها محبته كما أُلقيت في قلب القابلة من قبل..

}أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي{ [سورة طه/39]

أحبت آسية هذا الطفل حبًّا جمًّا وتعلقت به بسرعة شديدة، واتخذت قرارها بتربيته وإيوائه، لا سيما أنها لا تنجب، أو لأنها لا تمتلك الذكور، فيقال في سيرتهم: إن آسية وفرعون لم يصابا بالعقم، بل يقال أن كانت لهما نجلة، ويقال أيضًا أنهما كلما أنجبا ذكرًا توفَّاه الله، وبقيا على هذه الحالة سبع سنوات، حتى أتى موسى لآسية هدية ربانية داخل هذا

التابوت الصغير، وهو ما ساعد على تضاعف حب آسية لموسى بمجرد أن ألقت عليه النظرة الأولى..

وما إن علم الذباحون من رجال فرعون بأمر ذلك الغلام حتى جاءوا مسرعين لقتله خوفًا من أن يكون من بني إسرائيل، لكن آسية عارضتهم وطالبتهم بانتظار أمر فرعون، فإن وافق على بقائه بقي، وإن رفض فهو للذباحين..

ولما جاء فرعون استنكر هذا القرار الذي اتخذته زوجته، وصمَّم على قتل الرضيع، لكن آسية لم تيأس في محاولاتها لإثنائه عن ذلك، فذكر لها تخوفه من أن يكون هذا الطفل من نسل بني إسرائيل، وأن هذا العام من الأعوام المقرر فيها قتل ذكور بني إسرائيل، وأكد لها شعوره بأنه ليس طفلًا عاديًّا، لكنها كانت تنفي كل ذلك، وأصرت على أنه هدية جاءتهما لتعويضهما عن عدم امتلاكهما للذكور من نسلهما..

}وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{ [سورة القصص/ 9]

وبهذه الطريقة تشبثت آسية بدفاعها عن المولود حتى رضخ فرعون أخيرًا لطلبها على مضد، حيث أجابها قائلًا: يكون لك، وأما أنا فلا حاجة لي فيه..

***

قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «والذي يُحْلَفُ بهِ لو أَقَرَّ فرعونُ أن يكونَ قرَّةَ عينٍ لهُ، كما أَقَرَّتْ امرأتُهُ، لهداهُ اللهُ كما هداها، ولكن حَرَمَهُ ذلك».

***

اتخذت آسية الرضيع قرة عين لها كما وصفت لفرعون بالضبط، فكانت تدلِّلُه وترعاه طيلة الوقت، أما فرعون فنادرًا ما حمله، ومن تلك المرات النادرة أمسك الرضيع بلحية فرعون وجذبها بالقوة التي أخرجت بعض الشعيرات في يده، حينها فزع فرعون كما استشاط غضبه، وعاد يؤكِّد لزوجته أن هذا الطفل ليس طفلًا عاديًّا، وأنه لابد من قتله، لكن آسية -كعادتها- ظلَّت تدافع عن موسى حتى الرمق الأخير، وبعد كثير من الحجج المرفوضة من فرعون، اقترحت آسية اقتراحًا نال استحسان الطاغية، وهو أن تعرض الرضيع للاختيار ما بين جمرة من النار وتمرة -أو لؤلؤة-، فإن كان طفلًا عاديًّا سيلتقط الجمرة لتوهجها الجاذب للنظر، وإن كان استثنائيًّا سيتجنب الجمرة ويختار التمرة، وافق فرعون وقاما بتنفيذ الاختبار، وفي اللحظة التي اتجهت فيها يد موسى لالتقاط التمرة، أتاه الوحي من عند ربه، عن طريق جبريل عليه السلام ليجعله يلتقط

دولة الكتب

الجمرة، وهو ما كان، التقط موسى الجمرة، وكعادة الأطفال وضعها في فمه مسرعًا لاستكشافها، لكنها سرعان ما أحس بحرارتها ولفظها ملقيًا إياها وآخذًا في البكاء، وهنا تأكَّد فرعون من خطأ مزاعمه، وارتاح قلب آسية لحفاظها على المولود..

ومن المرجح أن تلك اللسعة التي أحدثتها الجمرة في لسان موسى هي السبب في تلعثمه في مخارج الحروف بعض الشيء، وهو السبب الذي جعل موسى يدعو ربه حينما بُعث بطلاقة اللسان حتى يفهمه الناس..

}وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي{ [سورة طه/27 - 28].

وفي استجابة الدعوة اتجاهان؛ الاتجاه الأول: يفيد بأن لسان موسى قد تعافى تمامًا، والاتجاه الثاني: يشير إلى أنه كان تعافيًا جزئيًّا يؤدي غرض فهم الناس لحديثه، وذلك لأن موسى دعا بحل العقدة، ولم يزد، وإن زاد لاستجاب الله..

***

في ذلك الوقت كان قلب أم موسى عليه السلام يشتد حنينه نحو الرضيع الذي علق في قصر فرعون.. وكانت مشاعرها تحترق شوقًا إلى طفلها الصغير الذي لم يمكث

معها وقتًا يذكر، ولذلك طلبت من ابنتها مريم أن تتبعه وتقص آثاره، عسى أن تأتيها بأخبار تخصه من داخل قصر فرعون، فيشفى غليلها، وذلك طبعًا بعد أن تأكدت من أن موسى كان داخل القصر، حيث شاع الحديث بين الناس عن كون فرعون قد التقط رضيعًا من تابوت كان في النيل وأسكنه في قصره..

وعند قصر فرعون، تسربت الأحاديث إلى مريم أخت موسى، والتي علمت من خلالها أن أخاها رفض كل المرضعات اللائي حاولن إرضاعه بأمر آسية زوجة فرعون، زاد بحث آسية عن مرضعه ترضعُه وتربيه ويقبل ثديها، لكن دون جدوى، لم يرض الرضيع بأي مرضعه حاولت إرضاعه، وبذلك اشتد به الجوع والبكاء، وشارف على الهلاك، واشتد بآسية الحزن والغم..

كان قد مر ثمانية أيام دون أن يرشف موسى أي قطرة من اللبن تحافظ على حياته، وفي تلك الأثناء، تشجعت مريم بحماس الطفولة والتهبت بحب أخيها، وتقدمت إلى داخل قصر فرعون لتدنو من آسية عارضة عليها أن تأتي لها بامرأة مرضعة أمينة تكفل وتتعهد بهذا الرضيع الصغير في مقابل أجر لها، وافقت آسية على الفور، وتسلَّل الأمل إلى داخلها بقوة هذه المرة..

توحة الكتب مراية

هرعت مريم أخت موسى بفرح وسرور شديدين إلى أمها تزف إليها الخبر، والتي عمتها الغبطة بدورها فور أن سمعت الخبر، وانطلقت مسرعة إلى قصر فرعون لترى رضيعها وتبرد لهيب فؤادها..

دخلت والدة موسى إلى قصر فرعون، وجاءوا إليها بالرضيع، وما إن وضعوه في حجرها حتى التقط موسى عليه السلام ثديها وأخذ يرضع منه بنهمٍ حتى ارتوى هو من صدر أمه، وأثلجت أمه صدرها به..

فرحت آسية بذلك فرحًا عظيمًا، وعلى الفور طلبت من أم موسى أن تمكث في القصر لترضع هذا الغلام واعدة إياها بأن تعطيها كل أنواع الهدايا، وتكرمها بأقصى أنواع الإكرام، لكن أم موسى طلبت من آسية أن تسمح لها بأخذ الغلام إلى بيتها لتتعهده هناك بالعناية والرعاية، معللة ذلك بأنها لا تستطيع أن تترك بيتها وأولادها..

صار الأمر أمرًا واقعًا، ولم يكن أمام آسية سوى أن ترضى بذلك، على أن تأتي به إليها في القصر كل فترة لتراه ثم تعيده لها لمواصلة إرضاعه، وهكذا تحقَّق الجزء الأول من وعد الله إلى أم موسى، وأعاد إليها نجلها ليقر عينها ويثلج صدرها..

}وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن

رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ{ [سورة القصص 10 - 13]

}وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى{ [سورة طه 37 - 40]

***

مكث موسى عليه السلام عند أمه مدة الرضاعة حتى فطمته، وبعد فطامه التزمت بوعدها الذي قطعته لآسية وردته إليها، لينشأ عليه السلام داخل قصر فرعون وإلى جواره، فرعون، الشخص الذي اعتصر قلب أم موسى خوفًا منه على وليدها، سيَّر إليه الله موسى ليربيه في كنفه ويحميه بنفسه من بطشه! سبحان الله!!

شبّ موسى عليه السلام في قصر فرعون وعاش فيه مُعزّزًا مكرّمًا كأبناء الملوك، نشأ على أكثر المربيين ثقافة في حاشية فرعون، لبس من ملبس فرعون، وأكل من أكله، أراد له الله أن ينشأ إلى جوار فرعون ليراه كما لا يراه الناس، يراه كبشري يأكل ويشرب ويمرض ويتألم ويقضي حاجته، ليس إلهًا منزهًا كما يدعي هو أو حاشيته، وهكذا ترعرع موسى عليه السلام وسط قومه، حتى إذا بلغ أشده أتاه الله تعالى حكمًا وعلمًا..

}وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{ [سورة القصص 14]

ذات يوم، تخلف موسى لسبب عن مركب فرعون الذي يجاوره فيه عادة، فهم ليلحقه وركب في إثره، وبينما هو في طريقه، أدركه وقت القيلولة في مدينة ما من مدن مصر القديمة، فأخذ يتجول في طرقتها في هذا الوقت الهادئ حيث الناس في بيوتهم، وحركة البيع والشراء متوقفة، أثناء تلك الجولة القصيرة مر موسى برجلين يقتتلان، أحدهما من بني إسرائيل، والآخر قبطي تابع لآل فرعون، وفي ذلك الشجار ظهر القبطي على نظيره واعتدى عليه، فما كان من التابع لبني إسرائيل إلا أن استغاث بموسى لينجده من شر القبطي، فأقبل موسى عليه السلام نحو القبطي يريد أن

يمنعه من الاعتداء ويدفع الأذى عن الضعيف، فوكزه ليبتعد ويكف عن اعتدائه، لكن حدث ما لم يتوقعه موسى أبدًا ولم يقصده، خرَّ القبطي صريعًا في الحال، كانت الوكزة التي قصد بها موسى فض النزاع كافية للدرجة التي أودت بحياة القبطي دون أن يحاول موسى فعل ذلك..

شعر عليه السلام بالحزن الشديد لمصير القتيل، وتبادر لذهنه على الفور أن ما حدث كان من عمل الشيطان الذي وسوس إليه فزاد من غضبه للحدِّ الذي جعل وكزته للقبطي تكون بتلك القوة، فأحس موسى بالندم على ذلك، وتاب إلى ربه في الحال طالبًا المغفرة عن فعلته..

}وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ على فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ{ [سورة القصص 15 - 17]

أما موقف القتل ذاته فقد مر على خير، حيث لم يرَ الموقف سوى موسى وذلك الرجل من بني إسرائيل الذي نصره موسى..

لكن موسى لم يرتح لذلك أبدًا، وأمضى وقته مترقبًا خائفًا، فإن علم أتباع فرعون أن موسى قد قتل واحدًا منهم لينصر رجلًا من بني إسرائيل، سيكون بلاءً عظيمًا، فسيتأكد ظنهم أنه من بني إسرائيل، وأنه -ككل بني إسرائيل- عدو لهم..

أما الأقباط أتباع فرعون حينما وجدوا الجثة فقد أتوه غاضبين والغيظ يتملكهم لقتل رجل منهم، وطلبوا منه أن يأخذ لهم بثأرهم من بني إسرائيل، وقالوا له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلًا منا فخذ لنا بحقنا، فأجابهم فرعون بقوله: ائتوني بقاتله ومن يشهد عليه لآخذ لكم حقكم، وعليه فقد بدأوا يطوفون داخل المدينة باحثين عن القاتل، وهم يلتمسون الأخبار..

لم يمض وقت طويل حتى مر موسى بحدث آخر مشابه لذلك الذي قتل على أثره القبطي، شجار آخر بين أحد رجال بني إسرائيل وأحد أقباط فرعون، وبنفس الطريقة الأولى، كان الرجل من بني إسرائيل يستغيث بموسى لينصره، لكن المفاجأة أن الرجل من بني إسرائيل كان هو ذاته الذي نصره موسى حينما قتل القبطي، وهو ما أغضب موسى منه لكثرة نزاعاته، فقام بتوبيخه قائلًا: إنك لغوي مبين، ثم تقدم نحوه غاضبًا ليخلصه من يد قبطي للمرة الثانية، لكن الرجل من بني إسرائيل حينما رأى الغضب يتطاير من وجه موسى وهو

مقبل في اتجاهه، ظن أن موسى قادم ليقتله هو لا ليخلصه من القبطي، لا سيما أنه وبخه منذ لحظات، فشعر الرجل بالرعب وقال لموسى خائفًا: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس!

فتذكر موسى ما حدث جراء غضبه بالأمس، فهدأ في الحال وأعطى ظهره للمتشاحنين مغادرًا المكان وهو يستغفر، لكن على الناحية الأخرى، فإن القبطي المتشاحن قد سمع للتو ما قاله الرجل لموسى، فعلم على الفور أن موسى هو من قتل صديقهم الذي وجدوا جثته بالأمس، فترك النزاع وتوجه مسرعًا ليخبر أتباع فرعون بما سمعه، لقد وجدوا القاتل!

علم فرعون وجماعته بأن موسى هو الذي قتل ذاك الرجل القبطي، فما كان من فرعون لما سمع هذا الخبر إلا أن أمر جنده أن يبحثوا عن موسى ويأتوه به ليقتله حتى لا يتجرأ أحد من بني إسرائيل على قتل أحد من أتباعه الأقباط، فذهب الجند يفتشون ويبحثون عن موسى عليه السلام في طرقات المدينة..

في ذلك الوقت كان هنالك رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه يقال: إنه «حزقيل» قد علم بأمر فرعون بالإتيان بموسى ليقتله، وأن جنود فرعون قد اقتربوا من إيجاده، فما

كان منه إلا أن سبقهم إلى موسى عليه السلام من طريق مختصر، وأخبره بالخبر وبمؤامرة فرعون وجنده، وطلب منه ناصحًا مشفقًا عليه أن يخرج من مصر خوفًا عليه من فرعون وجنوده..

أخذ موسى بالنصيحة في الحال، وخرج من مصر إلى أرض «مدين» داعيًا ربه أن يهديه الطريق إليها، وأن ينجيه من شر فرعون..

لم يذكر القرآن الكريم اسم الرجل، لكن أغلب الظن أنه كان من الأشراف في قوم فرعون، حيث ذكر أنه جاء من أقصى المدينة، وجرت العادة أن يسكن الأشراف ونبلاء القوم في أقاصي المدن حينها..

}فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ * وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{ [سورة القصص 18 - 21]

***

لم يكن خروج موسى عليه السلام من مصر جُبنًا؛ لأن الأنبياء يستحيل عليهم الجبن، لكنه كان بأمر الله لينجو في ذلك الوقت من كيد فرعون..

توجه عليه السلام إلى مدين ماشيًا على قدميه بغير زاد ولا دابة يركبها، فكان يأكل ورق الشجر، ومدين هي المدينة التي أهلك الله تعالى فيها قوم نبيّه شعيب، وبقي يمشي مسيرة ثمانية أيام حتى وصل إلى مدين، وقد ألمَّ به الجوع والتعب، فجلس تحت ظل شجرة، فأبصر امرأتين وكانتا أختين ترعيان الأغنام، وتريدان سقي أغنامهما من بئر كبيرة كان الرعاة يسقون مواشيهم منها، وكانت هاتان الأختان تمسكان بغنمهما؛ لئلا يختلط بغنم الآخرين، فأشفق موسى عليه السلام عليهما، فسألهما عن سبب رعايتهما الغنم بنفسيهما، فأخبرتاه بأن أباهما شيخ كبير، وليس عنده من الأولاد الذكور من يرعى له هذه الأغنام..

وكان عليه السلام حينما رأى البئر وجد عليه جماعة من الرعاة يسقون أغنامهم منه، فلما فرغوا أعادوا صخرة كبيرة عليه، وكانت هذه الصخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فلما أخبرت هاتان الأختان خبرهما لموسى، تقدم نحو الصخرة الكبيرة الموضوعة على فم البئر فرفعها وحده، ثم

استقى منها الماء، وسقى لهاتين المرأتين غنمهما، وردَّ الحجر مكانه، فلما فرغ من ذلك انصرف إلى شجرة وجلس في ظلها داعيًا الله كعادته..

}وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلى مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ{ [سورة القصص 22 - 24]

رجعت هاتان المرأتان إلى أبيهما، والذي هو نبي الله شعيب عليه السلام، وأخبرتاه عن موسى، وكيف سقى لهما غنمهما، كما أخبرتاه بقوته، ثم طلبتا منه أن يكرمه على هذا الصنيع الطيب..

فرح شعيب لحسن صنيع موسى، وبعث إحدى ابنتيه لدعوته..

فجاءت إلى موسى تمشي بوقار وحشمة، وطلبت منه أن يذهب معها إلى أبيها ليجزيه على ما صنعه..

فقام معها موسى عليه السلام وقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فإني أكره أن تُصيبَ الريح ثيابك فتصف

جسدك، فمشت خلفه تصف له الطريق، حتى وصل إلى أبيها الذي قدم له الطعام فور وصوله، لكن موسى رفض بنفسه الأبية قائلًا: إنا من أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضًا من الدنيا، فأخبره شعيب أن ذلك الطعام نوع من أنواع الضيافة والكرم، وليس أجرًا على ما فعله مع ابنتيه، فقبل موسى الضيافة حينها.. وبعدها أخبره بقصته من وقت ميلاده، فلما عرف شعيب سبب خروج موسى من مصر، طمأنه بإخباره أن لا سلطة لجنود فرعون داخل أرض مدين، وبذلك فإنه قد نجى منهم..

}فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{ [سورة القصص/25]

قصت الفتاة لأبيها عمَّا كان من قوة موسى في رفع الصخرة، وما كان من تقواه حينما أمرها أن تمشي خلفه لا أمامه، وطلبت منه أن يستأجره للعمل عنده، لكن شعيب ذهب إلى ما أبعد من ذلك، فقد أعجب بورعه وقوته ورغب في تزويجه ابنته «صفورة» التي أحضرته، على أن يرعى له الغنم ثماني سنين يكون فيها أجيرًا عنده، وإن شاء يتممها موسى عشرًا، وهو ما كان من موسى تفضلًا منه..

}يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ{ [سورة القصص/26]

}قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ على وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ{ [سورة القصص 27 - 28]

***

* تنبيه: اختلفت الآراء عن الشيخ المذكور في الآية، فقيل: هو شعيب نبي الله عليه السلام، وهذا هو المشهور عند كثيرين.. قال بعضهم: بأن شعيبًا عاش عمرًا طويلًا بعد هلاك قومه، حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته، وقيل: هو رجل اسمه شعيب، وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين، وقيل: هو ابن أخي شعيب، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

***

بعد قضاء العشر سنوات، اشتاق موسى إلى بلده وقومه، وقرر العودة إليها أملًا أن يكون الوقت قد أنساهم حادثة القتل التي هاجر على أثرها، وكانت الليلة التي اختارها عليه

السلام للعودة إلى مصر ليلة مظلمة باردة، فتاه مع أهله - زوجته وولديه- في الطريق حتى لم يكن يدري إلى أين يتوجَّه، ولم يهتد إلى سلوك الدرب المألوف، وكانت زوجته حاملًا، وأخذها الطَّلق في تلك الليلة المظلمة الباردة التي عمَّها المطر والرعد والبرق، فأراد عليه السلام أن يشعل نارًا فلم يستطع إلى ذلك سبيلًا، وبينما هو يحاول أبصر من جانب الطور نورًا، فحسبه نارًا، فتقدم نحوه مسرعًا، فلما وصل قريبًا من جبل الطور في وادٍ اسمه «طِوى» رأى نورًا عظيمًا ممتدًا من عنان السماء إلى شجرة عظيمة خضراء، قيل: هي العوسج، فاحتار موسى وتعجب مما يراه، ثم ناداه الله يأمره بخلع نعليه ليلمس بقدميه الأرض المباركة..

}وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى{ [سورة طه 9 - 10]

}فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ{ [سورة القصص/29]

}فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى *

إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي{ [سورة طه 11 - 14]

}فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{ [سورة القصص/30]

}فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{ [سورة النمل/8]

}وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى{ [سورة طه 17 - 18]

بعد ذلك أمر الله موسى بأن يلقي عصاه، فاستجاب موسى وألقاها، فانقلبت حية ضخمة سريعة المشي لها أنياب مخيفة، ذهل موسى لما رآها وهمَّ بالمغادرة، لكن الله أمره بأن يرجع إليها ويمسكها، فاستجاب موسى، وما إن وضع يده عليها حتى عادت إلى حالتها الأولى..

بعد ذلك أمره الله أن يدخل يده في جيبه ثم أمره بإخراجها، فإذا هي بيضاء تتلألأ كالقمر من غير برص ولا بهاق..

وبذلك فقد قدَّم الله إلى موسى برهانين يتمثلان في

انقلاب العصا إلى حية عظيمة، وفي ابيضاض يده بعد أن أخرجها من جيبه، برهانان جاءا ليؤمن موسى بوحي ربه، ويؤدي رسالته، وهي دعوة فرعون وأتباعه إلى عبادة الله، إلى جانب تجديد عقيدة بني إسرائيل وتخليصها مما يشيبها بعدما نسوا عقيدة أجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب..

}وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ{ [سورة القصص/31]

}قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى{ [سورة طه 19 - 20]

}يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ{ [سورة القصص/31]

}قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى{ [سورة طه/ 21]

}وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ ءايَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ{ [سورة النمل/12]

}اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلإِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ{ [سورة القصص/32]

وبعدما تلقى موسى أمر الدعوة، طلب عليه السلام من الله أن يجعل أخاه هارون رفيقًا له في الدعوة ليستندا على بعضهما البعض في مواجهة أذى فرعون وجنده المحتمل، وليعينه على نشر الرسالة الربانية حيث كان هارون عليه السلام أكثر من موسى فصاحةً وبيانًا، فكان له ما أراد، إلى جانب أن الله قد طمأنه بأن الأذى لن يلحق به أو بأخيه هارون..

}وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى{ [سورة طه 29 - 36]

}قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ{ [سورة القصص 33 - 34]

}قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ{ [سورة القصص/ 35]

}وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ *

وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَى ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ{ [سورة الشعراء 10 - 15]

***

وصل موسى عليه والسلام وأهله مصر ليلًا في يوم كان هارون أخيه غائبًا عنها، ولما التقاه أخبره بالدعوة التي وكلت إليه، وأن الله قد جعله وزيرًا له ورسولًا معه، ثم طلب منه أن ينطلقا سويًّا إلى فرعون تنفيذًا لأمر الله، وهو ما كان..

هناك، عند قصر فرعون، طلب موسى عليه السلام من أحد رجال فرعون على باب القصر بأن يأذن له بالدخول لمقابلة الملك، فاستفسر الرجل عن هوية السائل، فأجابه موسى قائلًا: قل له جاءك رسول رب العالمين..

فزع الرجل ممَّا سمعه وهرول إلى فرعون يخبره بأن هنالك رجلًا مجنونًا على الباب يزعم بكونه رسولًا من رب العالمين، فارتعد فرعون وهاب الأمر، ثم أمر الرجل بإدخال مَن بالباب، فدخل موسى رفقة أخيه هارون القصر، وبلا تردُّد دعَوَاه إلى عبادة الله الواحد الذي لا شريك له في الملك، وأن تلك رسالة من الله يحملانها له، كما طلبا منه أن يفك أسرى بني إسرائيل من قبضته وسطوته ويتركهم يعبدون الله وحده..

فما كان من فرعون إلا أن واصل طغيانه وتجبره، واستهان بموسى وهارون وازدرى قولهما، وتكبر كعادته على الحق، وأخذته العزة الكاذبة والكبرياء المزيف، ثم نظر إلى موسى وأخذ يسأله بتهكم وتكبر: كيف تقول لي ذلك وأنا من ربَّيتك في قصري بعدما التقطناك من البحر، وهبناك الحياة التي كدت تفقدها، وذقت كل ألوان الحسن والكرم بيننا، كيف لك أن تتجرأ وتدعوني لما أنت آت لدعوتي إليه الآن، وأنا ولي نعمتك مذ كنت رضيعًا!

وكيف تكون نبيًّا ممن تسميه رب العالمين وأنت قاتل، قتلت أحد الأقباط في مصر، ثم خرجت منها خفية! أهذا تصرف نبي!

فأجابه موسى أن ذلك كان من فعل الشيطان، لكنني لم أتكبر، بل تبت إلى ربي في الحال، وخرجت من مصر اتقاءً لشرِّكَ وشرِّ رجالك، والآن عدت إليك بعد أن أغدق الله على بحكمته وعلمه ونور بصيرتي، واختارني لأكون رسوله في الأرض..

}فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ *قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ

لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ{ [سورة الشعراء 16 - 21]

لم يرتد فرعون عن توجهه بعد كلام موسى، بل ازداد كبرًا وعجرفة، وتمادى في ادعاءاته، فوصل إلى أجحدها وأظلمها، فأنكر وجود الله، ولم يتوقف، بل زاد على ذلك بتأكيده على كونه الإله الوحيد لهذه الأرض!

وفي المقابل لم يتوقف موسى عن محاولات إقناعه رفقة هارون، أخبره بأن لا إله للعالم أجمع سوى الله تبارك وتعالى، وإنه كغيره من البشر، مخلوق ضعيف شكَّله الله وسواه بعلمه الذي لا حد له وتوالت الآيات والبراهين بعد ذلك على لسان موسى، لكن هيهات، هذا القلب القاسي الجبار لم يرجع عن طريقه الضال، وضرب بكل الحجج التي ساقها إليه موسى عرض الحائط، لم يهتدِ ولم يستكن، بل زاد في كفره وطغيانه ونظر إلى وزرائه من حوله، وأخذ يوجِّه الأسئلة الساخرة إليهم، متهكمًا على موسى وهارون ودعوتهما، ويؤكِّد على ألا إله لهم سواه، وهم بدورهم سيوافقون على ذلك..

}قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءابَآئِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ

إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ{ [سورة الشعراء 23 - 28]

}فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى{ [سورة النازعات 23 - 24]

}وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي{ [سورة القصص/38]،

استمرت المناظرة الحادة دون تراجع أي من الطرفين، موسى وهارون ثابتان على دعوتهما، وفرعون متمسك بكفره وفجوره، فلمَّا غلبته براهين موسى وأنهكت قدرته على الدحض والافتراء، لجأ فرعون إلى بطشه وسلطانه، وهدَّد موسى إن استمر في دعوته بالقبض عليه وسجنه، لكن ما كان ذلك ليخيف نبي الله، فتحداه موسى أن يأتيه بمعجزة تثبت صحة ما يقول، وقبل فرعون بعناده وجهله التحدي، كما كان يخشى أن يضعف موقفه أمام الحضور من وزرائه ومن شيوخ بني إسرائيل إن رفض التحدي..

في الحال، قام موسى بإلقاء عصاه لتتحول إلى ثعبان عظيم!

فزع فرعون وذهل الحضور، والكل يحاول استيعاب ما يجرى أمامهم، لكن موسى لم ينتظر وبادرهم بالمعجزة

الثانية، إذ أراهم ابيضاض يديه حين يدخلهما ويخرجهما من جيبه..

كان أثر ذلك على الحضور الذهول، وعلى فرعون التعب والإعياء من فرط الفزع، لكنه أصر على طغيانه، وادعى أن ذلك كله ما هو إلا سحر، وواصل تهديده لموسى بالسجن والتعذيب..

}قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ{ [سورة الشعراء 29 - 33]

إن اتبعته فيما دعاك له تصير تَعبُدُ بعد أن كنت تُعبَد..

قال ذلك الوزير هامان لفرعون حينما استشاره في أمر موسى ليرضي غروره، ويزين له الباطل الذي هو عليه، فتعاظم كبر فرعون الذي خلص من استشاراته لخواص رجاله على أنَّ ما قام به موسى ما هو إلا سحر عظيم، واتفقوا على جمع أمهر السحرة في مصر، وأن يعدوهم بالمكافآت السخية والامتيازات العظيمة إن استطاعوا دحض حجج موسى وألاعيبه، وكانت مصر تذخر بالسحرة الماهرين في ذلك الزمان، إلى جانب ذلك حاول رجال فرعون استمالة بني إسرائيل إلى جانبهم بالتحدث إليهم بلطف غير مسبوق،

وإخبارهم أن موسى ليس نبيًا بل ساحرًا يستعمل تلك الألاعيب لإخراج أهل مصر من بلدهم حتى يتمكن منها..

}قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ{ [سورة الشعراء 34 - 35]

وفي هذا الموقف الحرج، رأى بنو إسرائيل أن موعد التقاء موسى بالسحرة سيكون هو القول الفصل في هذا الصدد..

وحدث ما تمَّ الاتفاق عليه، في اليوم المحدد والذي كان يوم الزينة، وهو يوم عيد لفرعون يجتمع فيه مع رعيته، وتم تحديده مع موسى، كان فرعون يجلس في كامل أناقته وهيبته وسط وزرائه، وأمامه السحرة الماهرين الواثقين من انتصارهم، وحولهم الجمع الغفير من الناس، وفي الموعد المضبوط، وصل موسى رفقة أخيه هارون..

فلما أقبل موسى نحو السحرة زجرهم عن امتهانهم السحر الباطل الذي فيه معارضة لآيات الله، وهدَّدهم بعقاب شديد من الله إن لم ينتهوا عن ذلك، فسرت الرعدة بين السحرة، حيث إن ذلك لا يمكن أن يكون كلام ساحر مثلهم، لكنهم استجمعوا قواهم ناظرين إلى مكافآت فرعون، ووحّدوا جهودهم، وخيَّروا موسى بين أن يبدؤوا في إلقاء ما لديهم أم يبدأ هو، فأعطاهم موسى الإشارة ليبدؤوا،، وهو ما اعتبروه استهزاءً بهم وبقدراتهم، وحينها، سحروا أعين

الناس وأخافوهم وألقوا حبالهم وعصيهم التي كانت معهم وهم يقولون: بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون، وإذ بهذه الحبال والعصيّ يخيّل للحاضرين أنها ثعابين تتحرك تذهب وتجيء..

أمام هذا المشهد، أوجس موسى في داخله خيفة أن يُفتنن الحضور بفعل السحرة قبل أن يلقي هو ما بيده، لكنَّ الله ثبته وأيده وأمره بإلقاء العصا، فلما ألقاها انقلبت إلى حية حقيقية عظيمة ذات قوائم وعنق عظيم، وشكل مزعج للدرجة التي جعلت الناس الذين كانوا بالقرب منها انحازوا وهربوا مسرعين وابتعدوا عن مكانها، وأقبلت هذه الحية على ما ألقاه السحرة وبدأت تلقفه وتبتلعه واحدًا تلو الآخر بحركة سريعة، والناس ينظرون إليها متعجبين لهول ما شاهدوا..

وأما السحرة فإن ما رأوه هالهم، وعلموا أن ما أمامهم لا يدخل تحت قدرتهم، وتأكدوا بما عندهم من علم السحر أن ما فعله موسى ليس بسحر ولا شعوذة..

وكشف الله تعالى عن قلوبهم الغشاوة، ووضع في قلوبهم الإيمان، لذلك آمنوا وخروا ساجدين وأقَروا بوحدانية الله، وأعلنوا إسلامهم وإيمانهم جهرة أمام الحاضرين، وفيهم فرعون وأعوانه غير آبهين بهم..

فلما رأى فرعون هؤلاء السحرة قد أعلنوا على الملأ إسلامهم فزع وخاف، لكنه -على ذلك- لم يهتد ولم يرجع عما هو ماضٍ فيه، وحاول المناورة كعادته، فاتهم السحرة بأن موسى ساحر مثلهم، وهو مَن علمهم السحر من الأساس، وأنهم دبروا ما حدث لإيهام الناس بأن موسى نبي من عند الله..

لكن السحرة لم يتراجعوا عن موقفهم، وواجهوا فرعون بكذبه وتمسكوا بإيمانهم، فلجأ لملجئه الأخير كعادته، استخدم سلطته وهددهم بالبطش والتعذيب، وهو ما لم يجد معهم نفعًا، بل تمسكوا بإيمانهم وإسلامهم ولم يلقوا لتهديده بالًا..

فاستشاط فرعون غضبًا، ولم يكتفِ بالتهديد، بل قام بالتنفيذ، فصَلب هؤلاء السحرة وقطَع أيديهم وأرجلهم ليُروي غليله الحاقد، دون أن يستطيع ثنيهم عن الإيمان الذي ماتوا عليه شهداء بررة..

}فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ ءامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ

إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا ءامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى{ [سورة طه 70 - 76]

بعدما انتصر موسى على سحرة فرعون على مرأى ومسمع من الجميع، وآمن السحرة ولم يتراجعوا عن إيمانهم حتى ماتوا عليه، ازداد أتباع فرعون غضبًا وغيظًا، وأخذوا يحرضون فرعون على إيذاء موسى ومن آمن معه، واستنكروا على فرعون تركه لموسى وقومه يفسدون في الأرض حسبما زعموا، فوعدهم فرعون أنه سيقتل أبناءهم ويسخّر نساءهم في خدمته..

وبالفعل، أخذ يبطش ويفتك ببني إسرائيل الذين آمنوا بموسى، والذين ضجوا بدورهم بالشكوى مما حاق بهم من الظلم والتعذيب، وأخذوا يشكُون ذلك لموسى، فقبل أن نسمع بدعوتك يا موسى كنا معذبين، وبعد أن جئتنا بدعوتك لا زلنا كذلك!

لكن موسى لم يضجر من نفاذ صبرهم، وقدر غضبهم مما هم فيه، ولم يكن يطالبهم سوى بالصبر والاحتساب، إلى

جانب تبشيرهم بنصر قريب من عند الله..

}وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ{ [سورة الأعراف 172 - 192]

مع مرور الوقت، لم يتغير توجه فرعون ولا أتباعه، بل زادوا طغيانًا على طغيانهم، وتمادوا في كفرهم وعنادهم، حيث أمرهم فرعون بعبادته مخبرًا إياهم -بجهله- أنه إلههم الأوحد..

لكن عبادة الأقباط أتباع فرعون له لن تضعف من موقف موسى، لذا كانت إرادة فرعون هي قتل موسى عليه السلام ليتخلص من الدعوة برمتها..

وكالعادة، وافقه أتباعه على ذلك دون تردد، ليس فقط لكونهم أتباعه ويصدقون على أي مما يقول، بل لأنهم أنفسهم كانوا كارهين لموسى ولدعوته التي ستعطي لبني إسرائيل الشعور بحريتهم وحقوقهم، وهو ما يسحب البساط من تحت أرجل فرعون وأتباعه..

أما ما جرى فكان عكس العادة، فقد كان هنالك رجل من أتباع فرعون مؤمنًا كاتمًا لإيمانه، عارضهم وحاول إرجاعهم عن فكرة قتل موسى، وكانت حجته التي استعملها لإقناعهم أن قتل موسى لمجرد ادعائه أنه نبي من رب العالمين فكرة خاطئة، وأن هنالك احتمالين، الأول هو أن يكون موسى كاذبًا، وإن كان كذلك فلن تستمر دعوته كثيرًا، وسينفضح أمره بسهولة والأيام كفيلة بذلك، والثاني أن يكون موسى صادقًا -وخصوصًا لما جاء به من معجزات شهدتها الرعية كلها يوم الزينة- وحينها فسيكون من الخطأ قتله؛ لأن ذلك سيعرضهم لعقاب جسيم من رب موسى لا ضامن لتفاديه..

إن خرج هذا الحديث من بني إسرائيل كان ليقابل بالتهكم والغضب والتنكيل، لكن لخروجه من أحد أتباع فرعون الموثوق في انتمائه لملكه، جعل بعض مَن سمعوه يفكرون في الأمر مرة ثانية، وعلى الرغم من ذلك لم يتراجع فرعون عن قراره هو والأكثرية من رجاله، فعاد ذلك الرجل الصالح ليقارعهم بالحجة مرة ثانية، وفي تلك المرة ذكر لهم بعض الأحداث التاريخية التي يعرفونها جميعًا، فذكَّرهم بما حدث لقوم نوح وعاد وثمود، عندما كذبوا رسل الله فحل بهم عذابه، ولعل ما حدث مع نبي الله موسى أقرب لهم وقتًا ومكانًا، فإن كنتم تعلمون ما حدث لكل هؤلاء كيف تضمنون

ما سيحدث إن كان موسى نبيًّا من عند الله حقًّا..

ولكن كل هذا النصح والإرشاد لم يؤثِّر في قلب فرعون، بل صار يزداد ضلالًا وعنادًا، ولكي يعيد بعض الرجال الذين تأثروا بمعارضة ذلك الرجل الصالح إلى حماسهم السابق، أمر وزيره هامان أن يبني له صرحًا ضخمًا ليصل به إلى رب موسى إن كان هناك أصلًا، إثباتًا لقوته وجبروته، فبنى له ذلك الصرح الذي قيل: إنه لم يُر بناء أعلى منه، كما بدأ فرعون في المقارنة بسخرية من موقف قوته وجاهه وغناه، بموقف موسى من كل ذلك، فمن منهم بذلك يكون على حق؟..

***

أما موسى، فلما طال عليه الأمر دون جدوى مع فرعون وأتباعه، أوحى الله تبارك وتعالى إليه يأمره أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر ليلًا ويذهب بهم إلى أرض فلسطين، وأمره أن يحمل معه تابوت يوسف بن يعقوب عليهما السلام ويدفنه بالأرض المقدسة، فتجهّز موسى ومن معه من المؤمنين، وكانوا يزيدون على ستمائة ألف غير أطفالهم، فخرج بهم في الليل سائرين في طريق البحر الأحمر على خليج السويس، وأخذوا يجدّون في السير حذرًا من فرعون إن لحق بهم.

ولما استيقظ فرعون من نومه علم بخروج موسى ومن

معه من مصر، فجهز جيشًا كبيرًا كان فيه تقريبًا مائة ألف فارس وكان عدد جنوده يزيد على مليون وستمائة ألف جندي، وتوجّه فرعون بهذا الجيش الكبير طالبًا بني إسرائيل وموسى يتبع آثارهم، يريد كيدهم والبطش والفتك بهم، فأدركهم في اليوم التالي عند شروق الشمس.

ولما تراءى الجمعان، وعاين كل من الفريقين صاحبَه وراءه، ولم يبق إلا المواجهة والمقاتلة، شعر بنو إسرائيل بالخطر القادم، فالبحر أمامهم والعدو خلفهم، وفرعون وجنوده لن يتراجعوا عن الفتك بهم، فصاحوا بالعويل، وقالوا لموسى عليه السلام وهم خائفون: إنا لمدركون، ولكن موسى كان يعلم أن الله طالما أمره بشيء ما، فإنه سيذلل له عقبات الطريق، وحاول طمأنة بني إسرائيل والشد على عزيمتهم، لكن الأمر تفاقم وزاد صعوبة حيث اقترب فرعون وجنوده من بني إسرائيل وموسى، عند ذلك أوحى الله عز وجل إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر، فأخرج عليه السلام عصاه وضرب بها البحر، فانفلق البحر بأمر الله مشكّلًا اثنى عشر طريقًا، وكان كل طريق كالجبل العظيم، فانقسم بنو إسرائيل إلى مجموعات تساوي عدد الطرق، كل مجموعة تسلك طريقًا منها مسرعين بعد أن أصبح البحر يابسًا ممهّدًا للعبور بحول الله وقوته، وسرى التفاؤل وساد الإيمان في قلوب أتباع موسى بعدما رأوا تلك المعجزة أمامهم بأم أعينهم، ومع

خروج آخر فرد من بني إسرائيل من الطريق الذي يسلكه عابرًا البحر، وصل جيش فرعون إلى أول الطريق، فأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه حتى لا يسلكه فرعون وجنوده، فأوحى الله تعالى إليه أن يتركه على حاله ساكنًا على هيئته؛ لأنه يريد إغراقهم فيه..

امتثل موسى لأمر ربه وترك البحر على حالته، فلما وصل فرعون إلى البحر بنفسه رأى هذه المعجزة العظيمة وتحقَّق منها، فهاله المنظر العظيم حيث كان ماء البحر قائمًا كالجبال، ولكنه لم يذعن لقيمة البرهان العقلي على صدق موسى، وأخذته العزة بالإثم، وأظهر أمام جنوده التجلد والشجاعة، وأخذ يشجعهم لاقتحام البحر أمامه من أجل أن يفوز هو بالنجاة، ولكن في هذه اللحظات جاء جبريل عليه السلام فقاد فرس فرعون جهة البحر، فلما رآه الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين، فلما أصبحوا جميعهم في البحر، وقد اقترب أولهم من الخروج منه، عند ذلك أمر الله تعالى موسى أن يضرب بعصاه البحر، فلما ضربه ارتطم البحر عليهم كما كان، وعادت أمواجه هائجة كما كانت، فهلكوا جميعهم بالغرق، ولم ينجُ منهم أحد، جعلت الأمواج الهائجة تخفض فرعون تارة وترفعه أخرى، ولما أصبح على وشك الغرق قال: «آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ»، لكن إيمانه في اللحظة التي أدرك فيها

غرقه لم ينفعه، ولم يجنبه عذاب الله، فلا توبة بعد وصول الروح الحلقوم، أو اليأس التام من فرص النجاة، هلك فرعون وأتباعه أمام أعين بني إسرائيل، لكن بعد بعض الوقت، خاف بنو إسرائيل ألا يكون فرعون قد غرق، وأنه سينجو بطريقة ما ويعاود الانتقام منهم، وهذا إن دل على شيء، فإنه يدل على حجم البطش والجبروت والظلم الذين مارسهم فرعون ضد بني إسرائيل، فربّى بداخلهم كل هذا الخوف، فدعا موسى ربه لطمأنة بني إسرائيل، فاستجاب الله دعاء نبيه، وأمر البحر بلفظ جثة فرعون التي ألقيت على ساحل البحر على مكان مرتفع، حتى رآه بنو إسرائيل، وتحققوا من موته، وعرفوه بدرع من لؤلؤ كان فرعون يلبسه، ولم يكن لأحد مثله..

}وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ{ [سورة غافر/ 26]

}وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ

جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ{ [سورة غافر 28 - 29]

}وَقَالَ الَّذِي ءامَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ ءامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ{ [سورة غافر 30 - 35]

}وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ{ [سورة غافر 36 - 37]

}وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ

وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{ [سورة الشعراء 52 - 68]

***

* داخل كوكوريا *

أنت بالداخل مذهول أمام الشاشة، أو شديد التركيز، حقيقة لا أعرف، ما يهم هو أنك لم تلحظ دخولي الغرفة حتى الآن، حتى بعد أن قضيت حوالي خمس دقائق أشاهد معك اللحظات الأخيرة لغرق فرعون ورجاله، ولفظ البحر لجثته على الشاشة، لم تلحظني إلا عندما تقدمت نحو الشاشة وضغطت على زرها الأكبر فتوقف العرض، ووقفت أنت معه، تقريبًا لم تعد قادرًا على الجلوس من فرط إفرازاتك الهرمونية، بعد ما عرضته الشاشة، أو بعدما تفاجأت بوجودي، هذا أمر آخر لا أعرفه، لكن وقوفك وذهولك لم يطل، فبأمر من كوكوريا كتبت أنا بعض الرموز الإلكترونية على الشاشة، لتمتلئ الغرفة في لحظة بدخان أبيض كثيف،

لم تشاهده أنت سوى بضع ثوان؛ لأن ما تبقى من وقتك داخل الغرفة كنت فيه فاقدًا للوعي تمامًا..

بعد عدد من الدقائق، أنا أعلمها لكنك لا تعلمها، بدأت جفونك تتحرك، أنا أعلم أنك كنت تشعر بصداع عظيم يكاد أن يقسم رأسك إلى نصفين، لا تعلم سببه لكنك لم تشعر بمثله أبدًا، حاولت تحريك يديك لتضغط على عروق رأسك محاولًا تخفيف الألم، وهنا كانت المفاجأة الأولى، أنت مكبل الأيدي والأرجل..

بدأت عيناك تنفتح رويدًا رويدًا، لا تستطيع فتحها على مرة واحده بأثر الصداع، وحينما تمكنت من الرؤية نوعًا ما، كانت المفاجأة الثانية، أنت لست داخل الغرفة التي اعتدت على الوجود فيها طيلة المدة الماضية، أنت في مكان آخر، مكان يليق أن يطلق عليه القاعة الرقمية الأم للعالم السيار كوكوريا، مكبلًا كنت، ترتاح على ظهرك،، لا يتحرك أي جزء من جسدك سوى مقلتا عينيك، تقلب بهما النظر في المساحة التي يسمحان لك برؤيتها، وما خفي كان أعظم..

في اللحظات العصيبة من سيظهر دائمًا لطمأنتك يا صديقي؟ بالتأكيد إنه أنا..

أتحدث معك الآن في اللحظة التي أضع فيها جهازًا إلكترونيًا كالنظارات الطبية على عينيك، هذا الجهاز سيمكنك

من رؤية كل محتويات القاعة بطريقة علمية مبتكرة، تتيح لك الرؤية بزاوية 360 دون أن تحرك عينيك، إنه العلم يا صديقي الذي أشك أن عالمكم -رغم تطوره- قد وصل لهذا الحد منه، لكنه حتمًا سيصل يومًا ما، أنا واثق، ما يهم هو أنك قادر الآن على استكشاف المكان ولو بسرعة لانشغالك بتفسير وضعك الجديد، جدران القاعة كاملة من مادة زرقاء اللون، وتصدر ألوانًا خافتة كالبنفسجي والرمادي والأخضر، أما مساحة القاعة فلا تستطيع أن تبلغ مداها، وارتفاعها كذلك، أما أنت، فأنت مثبت فوق جهاز إلكتروني أبيض اللون ذي سواعد حديدية رمادية، أسفل ظهرك لوح إلكتروني، ورأسك منغمسة فيما يشبه نصف الكرة المجوفة، وذلك الشيء الذي تتصل به رأسك، هو أثمن شيء في كوكوريا! أعظم ما توصلنا له هنا..

ألم أخبرك يا صديقي أنه ما زال هنالك الكثير داخل كوكوريا، وحتى بعد هذه القاعة الضخمة، يوجد الأكثر والأكثر..

في الدقائق الماضية -وبأمر من كوكوريا- تم نقلك إلى هنا وتثبيتك على تلك الأجهزة، ثم مر بعض الوقت، ومع آخر معلومة خرجت من عقلك، بدأت جفونك في الحركة، نعم يا صديقي، تلك الكرة أسفل رأسك تمتلك الآن معلوماتك كلها،

منذ لحظة ميلادك، إلى لحظة التقاطك من عالمك ودخولك عالمنا، على كل، لن تستعمل كوكوريا كل تلك المعلومات في شيء، لكنها رأت أن الطريقة المثلى لاختبارك واكتشاف قدرتك على مواصلة الرحلة داخل كوركوريا، هي اختبار عقلك، فقط عقلك، أنت لن تشارك في هذا الاختبار أبدًا، وستشاهد كيف سيجري ذلك..

الآن وبعد أن خلعت عن عينيك الجهاز المثبت سلفًا، انظر إلى الأعلى، لا تخف، هذا الجهاز الذي سيقترب من وجهك بسرعة شديدة لن يصطدم بك، فقط هي شاشة ستهبط حتى ارتفاع مناسب لتسمح لك بمشاهدة ما سيجري..

على تلك الشاشة، عرضت الأحداث البارزة من قصة موسى التي تلت انتهاء فرعون وحكمه، والبعض مما سبق موت فرعون، إخراجه لتابوت يوسف عليه السلام من الماء، طلب بعض بني إسرائيل من موسى بناء الأصنام، رفضهم الجهاد، موسى وطلب رؤية الله، التيه، السامري وعبادة بني إسرائيل للعجل، الألواح، قصة الخضر، وأكثر وأكثر إلى وفاة موسى عليه السلام، كل ذلك من الوارد أن نعود إليه، لكن ما يهم الآن، هو أن تجتاز الاختبار اليسير الذي أعدته كوكوريا..

فبعد أن قمنا بنسخ كل معلومات عقلك، قمنا بإدخال بعض الأحداث المتفرقة من قصة موسى إلى داخل عقلك، لكن

بشكل مشتت، على سبيل المثال، إن كانت هنالك قصة واحدة من قصص موسى تتكون من خمسة مواقف، فإن الموقف الأول تم دسه في ذكرياتك وأنت في الثالثة من عمرك، والثاني في ذكرياتك منذ أسبوعين، والثالث في العاشرة من عمرك، والرابع في الخامسة، وهكذا، وبذلك فإن الاختبار قائم على قدرة عقلك على استخلاص تلك المواقف من بين ثنايا ذاكرتك المدججة بالذكريات والمعلومات، ومن ثم ترتيبها حسب التسلسل الزمني السليم، وفي الأخير إخراجها في صورة قصة كاملة..

ولكن، بعد أن اعتمدنا على ذلك الاختبار لتقييمك، تدخلت كوكوريا في اللحظات الأخيرة، وأنت على هذا الجهاز، وأضافت تعديلًا جديدًا، لتزيد من صعوبة الأمر بشكل طفيف، فكلما كان الاختبار أصعب، كلما كان اجتيازك له دليل يعتد به على قدرتك لمواصلة مشوار كوكوريا..

قررت كوكوريا أنه بالإضافة إلى دس القصة المفككة داخل عقلك، سيتم دس بعض المعلومات التي تشكل الإجابة على سؤال ما، وهو ما حدث، وفي الاختبار ستتعرض لعدد من الأسئلة لتختار منها سؤالًا واحدًا تثق أن المعلومات التي بحوذتك تشكل الإجابة على هذا السؤال الذي اخترته..

بعد أن شرحت لك ما سيحدث، دعني أخبرك أن ذلك كله لن

يأخذ وقتًا طويلًا أبدًا، فأنت داخل كوكب العلم، كما أطمئنك بأنك لن تبذل أي مجهود بدني في هذا الاختبار أو حتى ذهني؛ لأن نسخة عقلك التي قمنا بإنشائها ستنوب عنك، وتأكد، النسخة التي تم إنشاؤها بتقنياتنا العلمية الحديثة هي نسخة مطابقة لعقلك بنسبة مائة بالمائة، فلا تقلق من الظلم في هذا الاختبار..

والآن، سيبدأ الاختبار الأول، ستطلب كوكوريا من عقلك إخبارنا بالقصة الفريدة التي يحملها عن نبي الله موسى، والتي تختص بشيء ما يسهل تمييزه، وعليه، فإن هذه الشاشة التي فوقك مباشرة ستعرض القصة بالترتيب الذي كونه مخك، وسنشاهدها جميعًا، إن جرت القصة بسلاسة وتسلسل زمني مضبوط وبأحداث كاملة، نجحت في الاختبار، إن اختل التسلسل الزمني أو فقدت بعض العناصر، لن تجتاز الاختبار.. والآن بعد أن زال الصداع وتحسنت قدراتك، استرخ تمامًا وشاهد ما سيحدث في الدقائق القليلة القادمة..

تضيء الشاشة فوق رأسك باللون الأخضر معلنة بدء الاختبار الأول، يختفي اللون الأخضر لتظهر خلفية زرقاء داكنة تحمل سؤالًا باللون الأبيض، نص السؤال كالآتي..

الاختبار الأول: اذكر لنا قصة موسى الشهيرة مع بني

إسرائيل والتي ارتبطت بحيوان ما وتتعلق بجريمة..

الآن دعك من الشاشة يا صديقي، وانظر إلى بسرعة، بعد ثوانٍ معدودات، ستفقد الوعي ثانية، وستستفيق في اللحظة التي تبدأ فيها الشاشة عرض القصة التي كونها عقلك، لا تقلق، إلى اللقاء..

***

تضيء الشاشة فجأة لتعرض التالي...

في يوم ما، استيقظ بنو إسرائيل ليجدوا جثة رجل منهم ملقاة أمام أحد البيوت التابعة لهم مقتولًا ومفارقًا للحياة، كانت الجثة لرجل من نبلاء بني إسرائيل، لديه المكانة والغنى، واستنادًا على علاقاته السابقة بالأفراد والمعلومات المتاحة منها، وأيضًا استنادًا إلى المكان الذي وُجدت به الجثة، اختصم بنو إسرائيل فيما بينهم على هوية القاتل، وأصبح بعضهم يتهم بعضًا، ولكل منهم حجته، إلى أن جاء ابن أخ القتيل، فبدأ في الصراخ والعويل على رحيل عمه، واشتد الخصام بين المتشاحنين، وكل منهم يتمادى في اتهام الآخر، إلى أن ساد رأي البعض من الحضور، وهو كيف لهم أن يختصموا ونبي الله موسى موجود بينهم، فليذهبوا إليه ويعرضوا عليه ما حدث ليروا ما سيقول..

ذهب ابن أخي القتيل ومعه جماعة من بني إسرائيل، وتظلم لأمر عمه عند رسول الله موسى عليه السلام، لما سمع موسى الخبر ناشد كل بني إسرائيل إن كان منهم أي رجل يعلم ما حدث لهذا القتيل فليتقدم ويخبره، لكن لم يتقدم أحد، وأجمعوا على أنه لا أحد يملك أية معلومات، وطلبوا من موسى عليه السلام استشارة ربه في هذا الأمر، وكان لهم ما أرادوا.

بعد ذلك جاوبهم موسى بأنه قد استشار ربه وربهم، وأن الله سبحانه وتعالى يطلب منهم أن يذبحوا بقرة، استعجب الناس مما يقوله نبي الله! هل يأتون إليه في قضية قتل ليحلها لهم فيأمرهم بقتل بقرة! أمن الممكن أن يسخر منهم نبي من أنبياء الله! واشتكوا له من سخريته منهم، لكنه عليه السلام نفى ذلك عن نفسه، وأخبرهم أنه لم يرتجل، وإنه لم يبلغهم إلا بما أنزله الله عليه وحيًا، وإنهم إن نفذوا ما قاله لهم لحلت القضية، لكنهم تمادوا في طلبهم من موسى، فأخذوا يسألونه عن الكثير من التفاصيل الخاصة بتلك البقرة، فقد سألوا عن صفتها، ثم عن لونها، ثم عن سِنّها، وكانوا كلما زادوا في أسئلتهم، زاد الوصف تعقيدًا، فقد أجابهم موسى بأن تلك البقرة عوانٌ، وهي الوسط بين الفارض وهي الكبيرة، والبكر وهي الصغيرة، وأنها صفراء فاقعة اللون أي مُشربٌ بحمرة تسر الناظرين، ومن المعروف

أن هذا اللون لا يكثر وجوده، ويصعب الحصول عليه..

لكنهم لم يكتفوا بتلك المعلومات، بل طالبوه بدعوة ربه لتسهيل البحث عنها، حيث إن هنالك الكثير من البقر المتشابه، وأن الأمر قد التبس عليهم، فقال لهم موسى: إن الله يأمرهم بذبح بقرة صحيحة لا عيب فيها، وليست مذللة بالحراثة وسقي الأرض بالساقية.

وهنا بدأت دائرة البحث تضيق حتى وصلوا إلى البقرة المنشودة، حيث لم يجدوا بقرة بهذه الصفات إلا عند رجل منهم كان بارًّا بأمه، فطلبوها منه، فأبى عليهم، فأغروه في ثمنها حتى أعطوه بوزنها ذهبًا، فتكرر رفضه، ولم يقبل حتى أعطوه بوزنها عشر مرات، وهنا باعها لهم.

بعد ذلك عاد الرجال بالبقرة لموسى فأمرهم بذبحها، ففعلوا ذلك بتردد وحيرة، ثم أمرهم موسى عليه السلام أن يضربوا ذلك القتيل بجزء ما من هذه البقرة، فلما ضربوا القتيل ببعض هذه البقرة كما أمرهم نبيهم عليه السلام أحياه الله تعالى، فسأله موسى: من قتلك؟ فقال: قتلني ابن أخي، وعرّفه ثم عاد ميتًا كما كان.

وبذلك أسدل الستار على قصة بني إسرائيل بمعرفة الجاني، وهو نفسه الرجل الذي صاح وبكى وانتحب لفراق عمه، واتهم فيه الكثيرين قبل أن يتبين أنه القاتل على يد

موسى عليه السلام..

ويقال: إن العظة من تلك القصة هي أن الله سبحانه وتعالى أمرهم بقتل بقرة، وهو نفس المخلوق الذي سبق وإن أعجب بعضهم بتماثيله، وطالبوا موسى بأن يكون لهم تماثيل مثل تلك التي لحاتحور..

كما يقال إن بني إسرائيل إن قتلوا أية بقرة بعدما أمرهم نبي الله موسى بذلك من المرة الأولى دون أن يطالبوه بتحديد الصفات، لكانت أوفت بالغرض المنشود، لكنهم اشتدوا في الأسئلة فصعب الأمر عليهم، ويقال أيضًا أن تلك البقرة كانت لغلام صالح يتيم بار بأمه..

***

وعلى ذلك انطفأت الشاشة، في الحقيقة أنا منبهر! لم يكتفِ عقلك يا صديقي بترتيب القصة ترتيبًا صحيحًا كاملًا، بل ذكر لنا بعض الفرضيات في النهاية، وتلك المعلومات لم نقم بإدخالها لعقلك، بل إن عقلك استخلصها من معلوماتك السابقة، وقام بربطها بتلك التي أدخلناها لك، هذا إن دل على شيء يدل على براعتك! صدقني أنا سعيد جدًّا لك، كنت أخشى أن يلتبس عليك الأمر فتذهب لقصة العجل، أو قصة الحوت مع الخضر، لكن عقلك استخدم السؤال ليتعرف على القصة الملائمة، لضيق الوقت أنا لا أعلم حتى الآن ما رأي

كوكوريا بشأن أدائك في الاختبار، لكنني واثق أنك ستنال استحسان الجميع هنا، عمومًا سيكون لنا المزيد من الوقت لمعرفة تقييمك النهائي، والاحتفاء بك أنك كنت ناجحًا كما أظن، لكن الآن علينا الانتقال للاختبار الثاني، هيا انظر إلى الشاشة...

تتجدد إضاءة الشاشة باللون الأزرق، ثم ظهر على السطح نص تعريفي بالاختبار، مفاده أن الشاشة في قادم الدقائق ستعرض بعض المعلومات بالتدريج، وفور الانتهاء من عرض المعلومات، سيتم عرض الكثير من الأسئلة التي تطوف على الشاشة، وتتداخل إلى أن يختار عقلك أحدهم في مدة زمنية محددة...

والآن تضيء الشاشة باللون الأخضر ليبدأ الاختبار..

***

1 ـ القحطُ والجدب: وهو الذي عَبَّرَ عنه القرآن بالسنين، وهي أعوام الجدب والقحط التي أصابتهم حيث كان لا يُستغل فيها زرع ولا يُنتفع بضرع..

2 ـ النقص من الثمرات: وهي قِلة الثمار من الأشجار بسبب الجوائح والعاهات التي كانت تصيبها..

3 ـ الطُّوفان: وهو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار،

وقيل: المراد بالطوفان فيضان نهر النيل عليهم حيث فاض الماء على وجه الأرض ثم ركد، فلا يقدرون أن يحرثوا أرضهم ولا أن يعملوا شيئًا حتى جهدوا جوعًا وأصابهم الضيق الشديد..

4 ـ الجراد: وهو معروف، وقد أرسله الله تبارك وتعالى على قوم فرعون بشكل غير معهود، فكان يغطّي الخضراء - الأرض- ويحجب ضوء الشمس لكثرته، وكان لا يترك لهم زرعًا ولا ثمارًا ولا شجرًا، حتى قيل: إنه كان يأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورُهم ومساكنهم..

5 ـ القمل: وهو السوسُ الذي يفسدُ الحبوب، وقيل: هو القمل المعروف، وقيل: هو البعوض الذي أقضّ مضاجعهم، ولم يُمكنهم معه الغمض والنوم والقرار..

6 ـ الضفادع: وهي معروفة، وقد كثرت عندهم حتى نغَّصت عليهم عيشَهم، حيث كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم، وتقفزُ على فرشهم وملابسهم، وملأت بيوتهم وأطعمتهم وآنيتهم..

7 ـ الدم: حيث صارت مياه آل فرعون دمًا، فكانوا لا يستقون من إناء ولا من بئر ولا نهر إلا انقلب إلى دم في الحال بقدرة الله، وكذلك كانوا لا يستقون من نهر النيل شيئًا إلا وجدوه دمًا..

8 ـ العصا: وقد تقدم ذكرها أنها كانت من معجزات نبي الله موسى عليه السلام، حيث انقلبت عندما ألقاها عليه السلام حية حقيقية تسعى بقدرة الله تعالى..

9 ـ اليد: وقد تقدم ذكرها أنها من معجزات موسى عليه السلام، إذ كان عليه السلام يضع يده في جيبه ثم يخرجها بيضاء من غير سوء ومرض..

بعد ذلك تجددت إضاءة الشاشة، وظهر عليها عشرات الأسئلة حمراء اللون، لكن في لمح البصر ودون وقت يذكر، تغير لون أحد الأسئلة للأبيض مشيرًا إلى أن عقلك قد حدد هذا السؤال..

كان نص السؤال كالتالي: ما الآيات التي أرسلها الله تعالى على قوم فرعون جزاءً لكفرهم وتكذيبهم نبيه موسى عليه السلام؟

انطفأت الشاشة.

***

في الواقع لا أعلم ما أقول! لقد أبليت بلاءً عظيمًا في هذا الاختبار يا صديقي! لم يستغرق عقلك الكثير لتحديد الإجابة! فبالفعل كانت تلك هي الآيات التي أرسلت على قوم

موسى جزاءً لهم، فقد أخبر موسى عليه السلام عن طريق الوحي أن الله تعالى سيعاقب فرعون وقومه بأنه سيوقع عليهم العذاب الشديد جزاءً لكفرهم وتكذيبهم ما جاءهم به..

وقد كانوا كلما وقع عليهم العذاب جاءوا إلى موسى يطلبون منه أن يسأل ربه أن يرفع عنهم العذاب، ويعِدونه بالإيمان وترك إيذاء المؤمنين من بني إسرائيل، فكان موسى عليه السلام يدعو ربه أن يكشف عنهم العذاب، فإذا كشف الله تعالى عنهم ما نزل بهم من العذاب، غدروا بعهدهم واستمروا وعادوا إلى طُغيانهم..

وتلك الآيات التسع التي ظهرت على الشاشة في البداية كانت هي أوضح ما أرسله الله لقوم فرعون عقابًا لهم..

أحييك من قلبي يا صديقي، لقد اجتزت الاختبار بنجاح باهر، ويتبقى لك فقط معرفة النتيجة الرقمية للاختبار الأول، التي توضع عن طريق معادلة حسابية تعتمد على الربط بين دقة وصف عقلك للقصة، والوقت الذي استغرقه في ذلك، فإن تركنا لك الاختبار ليومين حتمًا ستنجزه بطريقة أفضل من ساعتين، وهكذا، فالوقت عامل مهم، وذلك كله طبعًا بعد التأكد من أنك أصبت في اختيار القصة، على كلٍّ، على إخبارك أن تلك النتيجة ستتعطل بعض الشيء، لوجود بعض القضايا الهامة جار مناقشتها في المركز الرئيس

بكوكوريا، والتي تتعلق باستمرار رحلاتنا وتطويرها وعدد مستخدميها وقواعد اختيارهم، وطريقة تدرجهم على سلم كوكوريا.

أنت الآن قد مررت بأولى خطوات السلم، وإلى حين ظهور نتيجتك، سترتاح في غرفة فخمة الطراز معدة لراحتك وإعادة تنشيط ذهنك وبدنك، وستنتظرني، إن استمرت كوكوريا في عطائها، ستكون لرحلاتنا أنا وأنت جزء ثانٍ، أو أجزاء عديدة، واذا قدّر لها عدم الاستمرار، فأريدك أن تعلم يا صديقي العزيز، بكامل صدقي وإخلاصي، استمتعت بالوقت معك، وأرجو أن تكون قد شاركتني المتعة والفائدة.

تم بحمد الله تعالى،....

رواية: كوكوريا رحلة إلى المجهول

محمد رافت

المصادر

الفصل الأول:

- Wayback Machine site

- الجزيرة الوثائقية.

- world news daily report

- open street map

- International Numbering Resources Database

الفصل الثاني:

- Russian Biographical Dictionary

- DEUTSCHEN NATIONALBIBLIOTHEK

- Brockhaus and Efron Encyclopedic Dictionary

- التاريخ الأوكراني - محمد عامر المصري

- History of Russia from the Earliest Times

- The spread of the Indo-Europeans

- Ancient Slavs Frank A. Kmietowicz

- روسيا اليوم

- Wayback Machine site

الفصل الثالث:

- Tales of Old Japan by Baron Algernon Bertram Freeman-Mitford Redesdale

- Till، Barry. The 47 Ronin: A Story of Samurai Loyalty andCourage

- Ikegami، Eiko. The Taming of the Samurai

- Allyn، John The Forty-Seven Ronin Story

- الموسوعة العربية الميسرة.

- Stokes، Henry Scott The Life and Death of Yukio Mishima

-wayback machine site

الفصل الرابع:

- My Enemy، My Brother | Op-Docs | The New York Times

- الجزيرة الوثائقية.

- Iran-Iraq War - Facts & Summary - HISTORY.com

- موسوعة مقاتل.

- الحرب العراقية الإيرانية للمشير محمد عبد الحليم أبو غزالة.

- صابر السويدان آمر القوة الجوية الكويتية، القوة الجوية الكويتية الأربعون عامًا الأولى 1953 – 1993.

- رعد مجيد الحمداني، قائد فيلق الحرس الجمهوري العراقي الثاني، قبل أن يغادرنا التاريخ.

- Wayback Machine site

الفصل الخامس:

- القران الكريم.

- الكتاب المقدس.

- قصص الأنبياء للشيخ دريان خليل الأزهري.

- قصص الأنبياء لابن كثير.

- قصص الأنبياء للشيخ الشعراوي.